العميل الهارب

روايات مصرية للجيب

إدارة العمليات الخاصة
المكتب رقم (١٩)

٣٦

RASHID
WWW.DVD4ARAB.COM

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

١ ــ عميل المخابرات ..

أظلمت صالة عرض سينمائى خاصة ، وسقط الضوء من آلة العرض ، فوق شاشة بيضاء ، ليلقى مجموعة من الصور الثابتة المتتالية ، كان القاسم المشترك بينها هو ذلك الرجل المتوسط القامة ، القوىّ البنيان ، القصير الشعر ، الذى يرتدى منظارًا طبيًا ، والذى يبدو فى لقطات مختلفة ، وبصحبة أشخاص مختلفين ..

وغمغم أحد الجالسين فى صالة العرض الخاصة :

ــ إنه (إيلى إيزاك) ، ولكنه يبدو ....

قاطعه صوت خشن حاد :

ــ هذا هو الاسم الذى كنا نعرفه به ، أما اسمه الحقيقى فهو (فريد عبد الكريم) ، عميل للمخابرات المصرية ، ويحمل الاسم الحركى (الصقر) .

انطلقت شهقة قوية وسط الظلام ، وهتف صوت مذهول :

ــ مستحيل !!

تجاهل صاحب الصوت الخشن الحاد ذلك التعليق الانفعالى ، وهو يستطرد :

ـــ أمَّا الذين يصاحبونه ، فهم بعض مسئولى المخابرات العامَّة المصرية ، الذين حصلوا بواسطته ، طوال خمسة أعوام كاملة ، على أدقِّ أسرار ومعلومات نشاطنا السِّرِّىّ .

وأضيئت أنوار الصالة ، التى يتوسَّطها رجل قصير القامة ، ذو شعر أشيب كثّ ، ووجه مكتنز ، محمرّ من شدَّة الغضب ، ضغط حروف كلماته ، وهو يستطرد فى حِدَّة :

ـــ أوافقكم أن هذا مذهل ، وغير معقول ، ولكنه حدث .. حدث ؛ لأن جهاز المخابرات الأسترتانى ، الذى يفاخر دومًا بكفاءته ، ودقَّته المتناهية ، لم يُجْرِ التحرِّيات الكافية ، حول المهاجر التركى الأصل (إيلى إيزاك) ، الذى قدم إلى (أسترتان) منذ عشر سنوات ، ونجح فى أن يصبح أحد رجال جهاز المخابرات الأسترتانية ، خلال خمسة أعوام فقط ، والأدهى أنه كان يشغل عدة مناصب شديدة الحساسية داخل الجهاز ، مكَّنته من نقل أسرارنا ، بصفة منتظمة ، إلى (القاهرة) ، ولولا ارتيابى فى وجود خائن وسط صفوفنا ، إثر فشلنا المستمر فى كل عملياتنا السِّرِّيَّة ، داخل الشرق الأوسط ، خلال الأعوام الأخيرة ، ما استطعت أبدًا كشف حقيقة الدَّوْر الذى يلعبه ..

لقد جنَّدت مجموعة خاصة ، غير معروفة من رجالنا ، يتبعون ، لى مباشرةً ، بمراجعة ملفَّات وأنشطة كل من التحق بالجهاز ، طوال السنوات السبع الماضية ، ولقد أثار انتباههم كثرة سفر (إيلى إيزاك) إلى موطنه الأصلى فى (تركيا) ، فى كل عطلاته وإجازاته ، ولقد نجحوا فى تتبُّعه ، ورصد مقابلاته مع رجال المخابرات المصريَّة هناك ، والحصول على أدلَّة تؤكِّد منحه إيَّاهم كل أسرارنا ، بصفة منتظمة ..

تهالك أحد الرجال الستة ، الحاضرين فى القاعة ، على مقعده ، وأخذ يجفِّف العرق الغزير ، الذى سال على وجهه ، من شدة الانفعال ، على حين ظلَّ صاحب الصوت يردف فى حَنَق ، وهو يدير عينيه فى وجوه الرجال السِّتة فى ازدراء :

ـــ شىء مخجل !! مخجل حقًّا !! لقد تمكَّن رجل واحد من خداعكم ، طوال خمس سنوات كاملة .. إننى أتخيَّل نظرات السُّخْرِيَة فى عيون رجال المخابرات المصرية ، حينما يتلقَّوْن أدقَّ المعلومات عن نشاط مخابراتنا السِّرِّىّ ، وهم يجلسون خلف مكاتبهم فى (القاهرة) .

حاول أحد الحاضرين أن يبدو متماسكًا ، وهو يقول :

ـــ إننا نعترف بتقصيرنا يا عزيزى (ديفى) ، ولكننى أسلِّم ببراعة الرجل ، فقد بدا لنا دومًا مثالًا لرجل المخابرات ، الذى يحُوز كل الثقة ، ولكنك أيضًا مقصِّر ، فقد كان ينبغى أن تعلن لنا كشفك الخطير هذا أمس ، قبل أن يسافر هو إلى (تركيا) .

نفث (ديفى) دُخان سيجارته فى عصبيَّة ، وألقى جسده فوق أحد المقاعد ، وهو يقول :

ـــ كنت أحتاج إلى مزيد من المعلومات والأدلَّة ، حول الدَّوْر الذى يلعبه ذلك الرجل ، والتأكُّد من وجود شريك له أوَّلًا ، وكان من المحتَّم أن تسير الأمور بالنسبة له فى مجراها الطبيعى ، حتى لا يشعر بما أفعل ، وصباح اليوم فقط وضعت يدى على الحقائق كاملة .

انتفض الشخص ، الذى تهالك على مقعده منذ لحظات ، وهتف فى انفعال :

ـــ سأرسل اثنين من رجالى إلى تركيا ؛ لقتله .. سأعيده إلى (القاهرة) فى تابوت .

تطلَّع إليه (ديفى) فى استخفاف ، وقال :

ـــ إنك تثبت لى أن هذا الرجل لم يخدعكم من فراغ يا (رادين) .. إن بعضكم يتميَّز بغباء منقطع النظير .

احتقن وجه (رادين) ، وهمَّ بأن ينطق شيئًا ما ، إلَّا أنه لم يلبث أن ابتلع كلماته ، مع استطراد (ديفى) :

ـــ الإجراء الأفضل ، والأكثر ذكاء ، هو أن تستدعيه إلى هنا لأمر عاجل ، على نحو لا يجعله يرتاب فى أمر الاستدعاء .. وما أن تطأ قدماه أرض (أسترتان) ، حتى يتم اعتقاله على الفور ، فوجوده بين أيدينا سيحقِّق أهدافنا ، ويعوِّض بعض خسائرنا ؛ إذ ينبغى أن نعلم منه أوَّلًا ماذا نقل إلى المِصريِّين من معلوماتنا ، ونستخدم معه كل وسائل التعذيب الممكنة ؛ لننتزع ما لديه من أسرار المِصريِّين ثانية .

انبرى أحد الحاضرين ، قائلًا :

ـــ وماذا لو جعلنا منه عميلًا مزدوجًا ، ينقل إليهم ما نشاء فقط ، وعلى نحو يضمن لنا خداعهم ؟

أطفأ (ديفى) سيجارته ، وهو ينهض قائلًا فى حِدَّة :

ـــ كلَّا .. إن شخصًا مثل (فريد عبد الكريم) لا يصلح للقيام بهذا الدور ، فمن المستحيل ترويض شخص خدم وطنه لسنوات ، فى عرين الأسد ، على خيانة ما يؤمن به ، كما أنه من المستحيل أن نخدعه بمعلومات زائفة ؛ إذ أن طول عمله بينكم سيجعله قادرًا ـــ ولا شك ـــ على التمييز ما بين المعلومات

الحقيقية والزائفة ، ولو تنبَّه إلى محاولتنا لخداعه ، فسنفقد الصيد ، والعملية كلها .

ثم اتجه نحو (رادين) ، الذى لم يكن قد تخلَّص من انفعاله بعد ، وقال فى لهجة آمرة :

ــ نفِّذ ما أمرتك به .. أعده إلى هنا على وجه السُّرعة ، وانتزع منه كل ما لديه ، بأيَّة وسيلة ممكنة .

واتجه نحو باب الخروج ، وهو يستطرد ، دون أن يلتفت إليهم :

ــ وبعدها سنعيده لهم فى تابوت ..

أسرع (رادين) يستوقفه ، وهو يجفِّف عرقه الغزير ، قائلًا :

ــ وماذا لو تنبَّه إلى ما ندبِّره له ، ورفض العودة إلى (أسترتان) ؟

أشعل (ديفى) سيجارة أخرى فى بطء ، كما لو كان يمنح نفسه وقتًا للتفكير ، ثم نفث دُخانها ، قائلًا :

ــ عندئذ فقط اقتله فى (اسطنبول) ، ولكن حَذَارِ ، فسيكون عليك أن تقدِّم لى أدلَّة كافية ، على أن هذا كان آخر ما لديك .. فالمعلومات التى يملكها هذا الرجل بالغة الأهمية

والخطورة ، بالنسبة لأمننا القومى .. وأكرِّر .. ابذل كل ما فى طاقتك ؛ لاستعادته أوَّلًا ، وتذكَّر أنت والآخرون أنكم ستعانون مساءلةً عنيفة ، بسبب ما فعله ذلك الرجل ، وعودته إلى (أسترتان) وحْدَها قد تغفر لكم .

وغادر صالة العرض فى خطوات سريعة ، وأغلق بابها خلفه فى عُنْف ، وترك نهرًا من العرق على وجوه الجميع ، وقد أدركوا أن أملهم الوحيد فى النجاة هو اقتناص الرجل ..

اقتناص (فريد عبد الكريم) ...

★ ★ ★

٢ ــ العميل الهارب ..

انعطفت سيَّارة زرقاء يمينًا ، لتتوقَّف فى نهاية شارع (أتاتورك) ، فى العاصمة (إسطنبول) ، وهبط منها رجل متين البنيان ، قصير الشعر ، ثبَّت منظاره الطبىّ فوق أنفه فى عناية ، وتلفَّت حوله فى حَذَر ، قبل أن يتقدَّم نحو الساحة ، التى تتوسَّطها مجموعة من التماثيل البرونزيَّة ، مختلفة الأشكال والأحجام ، فى نفس الوقت ، الذى برز فيه من شارع جانبى شخص طويل القامة ، يرتدى حُلَّة ذات لون أزرق داكن ، ويبدو فى الأربعينات من عمره ، واتجه بدوره نحو الساحة ، وتوقَّف الاثنان أمام أحد التماثيل البرونزيَّة ، يتأمَّلانه فى عناية ، قبل أن يغمغم أحدهما فى هدوء :

ــ مرحبًا بك فى (إسطنبول) أيها الصقر .

غمغم الآخر فى هدوء ، دون أن يلتفت إلى محدِّثه :

ــ مرحبًا بك يا سيِّدى .

دار الأوَّل حول قاعدة التمثال ، واقترب من الثانى مغمغمًا :

ــ هل من جديد ؟

أجابه الثانى :

ــ نعم .. لدىَّ تقرير حول نشاط عملاء (أسترتان) فى المغرب ، وهناك قائمة تضمّ أسماءهم ، ونشاطهم ، فى الصندوق السِّرِّىّ كالمعتاد .

انفرجت أسارير الرجل ، ذى الحُلَّة الزَّرقاء ، وهو يغمغم :

ــ عظيم .. إنك تقوم بعمل رائع يا (فريد) ، ومن المؤسف أن الأوامر تقتضى إعادتك إلى (مصر) ، بعد ستة أشهر فقط ، فسوف يحرمنا ذلك أحد عيْن لنا ، فى قلب المخابرات الأسترتانية .

فريد :

ــ لماذا اقتضت الأوامر ذلك ؟.. هل ارتكبت خطأ ما ؟.

هزَّ الآخر رأسه نفيًا ، وقال :

ــ على العكس .. لقد أدَّيت عملك فى منتهى الدِّقة والعناية ، طوال عشر سنوات كاملة ، ولكن الكمال لله وحْده ، ولا يمكن الاستمرار فى هذا الوضع إلى الأبد ، والحكمة تقتضى سحب الورقة الناجحة فى الوقت المناسب ، قبل أن تحترق ، وعليك أن تعدّ نفسك للعودة ، بعد ستة أشهر .

التقت نظراتهما للمرّة الأولى ، حينما استطرد الرجل :

ـــ وسنلتقى مرّة أخرى مساء غد ، عند جامع السلطان (أحمد) ؛ لتلقى التعليمات الجديدة .

فريد :

ـــ ولكننى سأسافر فى التاسعة من صباح غد إلى (أسترتان) .

تطلّع إليه رفيقه فى دهشة ، مغمغمًا :

ـــ بهذه السرعة ؟!

فريد :

ـــ لقد أرسلوا إلىَّ استدعاءً عاجلًا ؛ لأعود إلى (أسترتان) ، قبل الواحدة من ظهر غد .

ارتسمت أمارات القلق على وجه رفيقه ، وهو يقول :

ـــ عجبًا !!.. إنها أول مرة يلاحقونك فيها باستدعاء عاجل ، على هذا النحو .

ابتسم (فريد) ، قائلًا :

ـــ أنت تعلم أننى من الصفوة لديهم ، وربّما يحتاجون إلىَّ لأمر عاجل وهام .

صمت زميله برهة ، قبل أن يقول :

ـــ كُنْ على حَذَر ، فلقد لاحظ رجالنا بعض الوجوه المألوفة ، فى الأماكن التى تتردَّد عليها فى (إسطنبول) .. ولكن اذهب الآن ، وسأتصل بك بأيَّة وسيلة ، قبل سفرك .

وما أن بارَح (فريد) المكان ، حتى أخرج ذو الحُلَّة الزَّرقاء من جيبه قلمًا فضيًّا ، نزع غلافه ؛ ليكشف عن جهاز إرسال صغير ، أدناه من فمه ، وهو يقول فى صوت خافت :

ـــ من (م ـــ ٣) إلى (ص ـــ ٨) .. أما زال الرجل ، الذى أشرتم إليه ، يقتفى خطوات الصقر ؟

جاءه الجواب :

ـــ نعم .. لقد استقلَّ سيارة صفراء ، ويستعد للانطلاق بها خلف سيَّارة الصقر .

صمت الرَّجل برهة ، ثم قال فى حزم :

ـــ حسنًا اقتنصوا ذلك الرجل .. وأريد معرفة نتائج استجوابه بأقصى سرعة ممكنة .

وأنهى الاتصال ، وهو يغمغم فى قلق :

ـــ يبدو أن الورقة الرابحة قد احترقت بالفعل .

* * *

توقَّفت السَّيَّارة الصفراء أمام فندق (كريستال) ، حيث

ترك (فريد) سيارته ، وأسرع يرتقى درجات السُّلم القصير ، المفضى إلى بهو الفندق ، وترك صاحبها مقعده ، وسار خلف فريد ، وقبل أن يصل إلى السُّلَّم القصير ، اعترضه رجل يحمل سَلَّة كبيرة ، تمتلى بمختلف أنواع الزهور ، وقال وهو يمد له يده بباقة منها :

ــ اشتر هذه منِّى أيها السيِّد الكريم ، ولن تندم أبدًا .

دفعه الرجل فى عصبيَّة ، قائلًا :

ــ ابتعد بزهورك اللعينة .

ولكن بائع الزهور تشبَّث به فى إلحاح ، قائلًا :

ــ ستسعد صديقتك للغاية بزهورى ، وسأمنحك تخفيضًا خاصًّا فى ثمنها .

دفعه الرجل فى حِدَّة ، وهو يلوِّح بقبضته ، ويزمجر فى غضب :

ــ قلت لك ابتعد ، قبل أن أمزِّقك إربًا إربًا و ....

وتوقَّفت الكلمات فى حلقه فجأة ، وعلا الاصفرار وجهه ، حينما وقع بصره على فوَّهة المسدَّس ، التى تطلّ من باقة الزهور ، وسمع البائع يقول فى صرامة :

ــ ستعود معى الآن إلى سيَّارتك فى هدوء ، وإلَّا زيَّنت هذه الزهور قبرك .

وتوقفت الكلمات فى حلقة فجأة ، وعلا الاصفرار وجهه ، حينما وقع بصره على فوهة المسدس ، التى تطل من باقة الزهور ..

امتقع وجه الرجل ، وانصاع للأمر فى استسلام ، واتجه إلى سيَّارته ، حيث استقبله رجلان ، جلس أحدهما إلى جواره فى المقاعد الأمامية ، وجلس الآخر فى المقعد الخلفىّ ، وقال بائع الزهور الزائف فى برود :

ــ والآن ما رأيك فى نزهة قصيرة وسط الحقول الخضراء ، لعلَّها تفتح شهيتك للحديث حول سبب تعقُّبك وزملائك لنزيل فندق (كريستال) .. وحَذَارِ من الكذب ، فهو يصيبنى بعسر هضم ، يجعل أصابعى تنقبض على زِناد مسدَّسى .

ازداد شحوب الرجل ، وانطلقت السيَّارة مبتعدة عن الفندق ..

* * *

فى الوقت الذى كان فيه (فريد عبد الكريم) يتجه إلى مطار (إسطنبول) ، فى طريق العودة إلى (أسترتان) ، كان هناك عدد من الأشخاص يحُومون حول المطار ، فى انتظار إقلاع الطائرة به ؛ ليُطَمْئِنُوا أولئك الرجال ، الذين يسبحون فى بحر من القلق ، خلف مكاتبهم فى المخابرات الأسترتانية ..

ولم يكد (فريد) يصل إلى المطار ، حتى اعترضه أحد الحمَّالين ، قائلًا فى لهفة :

ــ هل أحمل حقائبك يا سيِّدى ؟

ابتسم (فريد) قائلًا فى هدوء :

ــ إنها حقيبة واحدة فحسب ..

همس الحمَّال فى هدوء ، وهو ينحنى ليحمل الحقيبة :

ــ لا بأس .. دَعْنى أحملها أيها الصقر ، حتى يبدو الأمر طبيعيًا على الأقل .

ترك له (فريد) الحقيبة ، وهو يجاهد ليخفى دهشته ، وهو يسأله :

ــ ماذا هناك ؟

أجابه الرجل فى هدوء :

ــ لقد كشفوا حقيقتك . وهم ينتظرون وصولك إلى (أسترتان) ؛ ليقتلوك على الفور .

شعر (فريد) بالاضطراب ، ولكنه تماسك ، وهو يغمغم :

ــ وما العمل ؟.. لا ريب أن بعضهم يراقبنى الآن ؛ ليتأكَّد من رحيلى .

أجابه الرجل ، وهو يضع الحقيبة فوق حامل معدنى خاص بالمطار :

ـــ لقد أرسلنى (م ـــ ٣) ؛ لمعاونتك على الإفلات منهم .. ولو نظرت أمامك ، فستجد فتاة تقترب منك ، وستصطدم بك ، وتسقط محتويات حقيبتها أرضًا ، وكل ما عليك هو أن تتظاهر بالانحناء لمعاونتها ، فى نفس اللحظة التى تتوقَّف فيها واحدة من سيَّارات الأجرة ، على بعد خطوتين منك ، وسيفتح سائقها الباب المجاور له ، وكل ما عليك هو أن تقفز داخلها ، واترك لنا مهمة إعاقة من يتعقَبونك ، حتى تبتعد بك السيَّارة ، وسنعيد إليك حقيبتك لاحقًا .

فريد :

ـــ ولكن ....

قاطعه الرجل :

ـــ فيما بعد .. الفتاة قادمة .

ولم يكد يتمّ عبارته ، حتى اصطدمت الفتاة بـ (فريد) ، وتبعثرت محتويات حقيبتها أرضًا ، وهتفت فى لهجة جَزِعَة :

ـــ معذرة .. لقد تأخَّرت عن الطائرة و ....

قاطعها (فريد) فى هدوء :

ـــ لا بأس .. سأعاونك عَلَى جمع محتويات الحقيبة .

وعلى بعد خطوات ، غمغم أحد مراقبيه فى توتُّر :

ـــ إنها تبدو تمثيلية سخيفة .. أراهن أنه قد شعر بالخطر ، وأظن أنه يدبِّر للفرار .

أشار زميله إلى سيَّارة الأجرة ، التى توقَّفت فجأة ، وهتف :

ـــ إنه كذلك بالفعل .. أسرع .

ولكن (فريد) قفز فجأة داخل السيَّارة ، التى اندفعت فى سرعة ، فأخرج الرجل مسدَّسه ، وهمَّ بإطلاق النار عليها ، ولكن زميله صاح به :

ـــ هل جَنَنت ؟.. إنك ستحوِّلها إلى حرب علنية .

هتف الرجل فى انفعال :

ـــ هل سنتركه يفرّ أمام أعيننا ؟

قال زميله فى حَنَق :

ـــ سنلحق بالسيَّارة .. اتصل بالوحدة الرابعة لاسلكيًّا ، واطلب منهم اعتراضها فى شارع (القسطنطينية) .

أسرع الاثنان إلى سيارتهما ، فى نفس اللحظة التى قال فيها أحد رجال المخابرات المصرية فى حزم :

ـــ الآن ..

وبدأت خُطَّة الإعاقة ..

* * *

٣ ــ قفص الصَّقر ..

استيقظ المقدَّم (ممدوح عبد الوهاب) فى ساعة متأخِّرة من الليل ، إثر رنين هاتفه المتواصل ، والتقط سمَّاعة الهاتف فى حَنَق ، فقد كان يَغُطّ فى نوم عميق ، بعد يوم شاقّ فى العمل ، وتدريب الضبَّاط الجدد ، وغمغم فى صوت يجمع ما بين الضيق والنُّعاس :

ــ من المتحدِّث ؟

استيقظت حواسه كلها ، حينما سمع صوت اللواء (مراد) ، عَبْر أسلاك الهاتف ، يقول :

ــ (ممدوح) .. ارتَدِ ثيابك ، واحضر إلى الإدارة فورًا .

تطلَّع (ممدوح) إلى ساعته فى دهشة ، وتساءل عن سرِّ ذلك الاستدعاء المفاجئ ، إلّا أن هذا لم يمنعه من أن يجيب فى حماس :

ــ سأحضر فورًا يا سيِّدى .

وحينما وصل إلى الإدارة ، كان الظلام يغلِّفها تمامًا ، عدا حجرة مدير العمليات الخاصة ، الذى كان يجلس فى مكتبه ، منهمكًا فى الحديث مع شخص آخر ، هبَّ لمصافحة (ممدوح) ، قائلًا :

ــ يؤسفنى أن انتزعناك من فراشك ، فى هذا الوقت المتأخِّر ، أيها المقدَّم .

ابتسم (ممدوح) ، وامتلأ صوته بالحيويَّة والنشاط ، وهو يقول :

ــ إننى مستعد دائمًا فى أيَّة لحظة من الليل أو النهار يا سيِّدى .

وضع اللواء (مراد) يده على كتف (ممدوح) ، فى امتنان وعطف أبوى ، وقدَّم إليه الشخص الآخر ، قائلًا :

ــ العميد (سامى) .. من إدارة المخابرات العامة .

صافحه (ممدوح) ، قائلًا فى احترام :

ــ مرحبًا بك يا سيادة العميد .

شدَّ العميد (سامى) على يده ، قائلًا :

ــ يسعدنى أن ألقاك أيها المقدَّم .. لقد بلغتنى أخبار بطولاتك .

ممدوح :

ــ شكرًا يا سيِّدى .. ولكننى أعتقد أنه من المبالغة إطلاق اسم البطولات على واجبى .

جلس اللواء (مراد) خلف مكتبه ، وهو يبتسم قائلًا :

ــ أنت الذى يبالغ فى التواضع يا (ممدوح) .. المهم أن تستمع الآن إلى العميد (سامى) .

اعتدل العميد (سامى) ، وهو يقول فى اهتمام :

ـــ الأمر يتعلَّق بواحد من أهم عملائنا ، يدعى (فريد عبد الكريم) وشهرته (الصقر) .

وقصَّ عليه أمر دخول (فريد) إلى (أسترتان)، بصفته مهاجرًا تركيًّا ، يحمل اسم (إيلى إيزاك) ، وانضمامه إلى المخابرات الأسترتانية ، حتى وصل بالقصة إلى لحظة فرار (فريد) من مطار (إسطنبول) ، واستطرد فى انفعال :

ـــ ولقد ساعدنا بعض الأتراك ، الذين يعملون لحسابنا ، على إخفائه فى مكان مجهول ، فى (إسطنبول) ، وهو ما زال يختبئ هناك .

أضاف اللواء (مراد) :

ـــ المشكلة الآن هى كيف نعيد (فريد) إلى (مصر) سالمًا .. فعيون المخابرات (الأسترتانية) تنتشر الآن فى كل مكان فى (إسطنبول) ، ولديهم العديد من العملاء الأتراك أيضًا ، بل إن بعض عملائهم يمثلون مناصب هامَّة وحسَّاسة فى أجهزة الأمن التركية ، وهذا يعنى أن أيَّة محاولة لإخراجه من هناك بالوسائل العادية ، أو عَبْر حدود أيَّة دولة عربية متاخمة لـ (تركيا) ، سيكون محفوفًا بالعديد من المخاطر ، ما دامت قبضتهم تمتد إلى كل مكان .

قال (ممدوح) فى هدوء ، وقد أدرك بذكائه طبيعة مهمته :

ـــ المطلوب إذن هو شخص يمكنه إخراجه من المصيدة ، على الرغم من كل ما يحيط بها من مخاطر وعقبات ، وأنا هذا الشخص .. أليس كذلك ؟

العميد (سامى) :

ـــ بلَى .. لقد جرى استعراض لكل العاملين فى أجهزة الأمن فى (مصر) ، ووقع الاختيار عليك ، وينبغى أن تعلم أن هذه المهمة تطوُّعيّة ، وليست إجبارية ، فالخطأ ـــ أى خطإ ـــ سيعنى التضحية برجل قدَّم عمره لخدمة وطنه ، وضياع جهد سنوات طوال .

ابتسم (ممدوح) ، قائلًا :

ـــ يمكنك اعتبارى متطوِّعًا يا سيادة العميد ، ففضلًا عن واجبى الوطنى ، الذى يجعلنى أتشرَّف بقبول المهمة ، فأنا أهوَى مثل هذه العمليات ، التى ألتقى فيها بخصومى من رجال المخابرات الأسترتانية ، الذين أحمل لهم ذكريات قديمة عديدة .

أطلق اللواء (مراد) ضحكة قصيرة ، وهو يقول :

ـــ ألم أقل لك إنه سيرحَّب بالمهمة على الفور ؟

نهض العميد (سامى) يصافح (ممدوح) ، قائلًا :

ـــ حسنًا .. سأترك الأمر الآن للواء (مراد) .. فمنذ هذه اللحظة أصبحت العملية تخص المكتب رقم (١٩) .

شدَّ (ممدوح) على يده ، وهو يقول فى ثقة وحماس :

ـــ ثِقْ يا سيِّدى أن الصقر سيعود ليرفرف بجناحيه ، خارج القفص الذى يحيطونه به .

ابتسم العميد (سامى) ، قائلًا :

ـــ المهمّ أن يعود إلى عُشّه .

وفى هدوء غادر الحجرة ، فى حين اعتدل اللواء (مراد) ، وهو يقول فى اهتمام :

ـــ والآن استمع إلىَّ يا (ممدوح) .

جلس (ممدوح) أمامه فى هدوء ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة ، وهو يقول :

ـــ كلِّى آذان صاغية يا سيِّدى .

* * *

تطلَّع (ممدوح) فى هدوء إلى السماء الصافية ، عَبْر نافذة الطائرة المجاورة له ، وهو فى طريقه إلى (إسطنبول) ، وهو يحاول ترتيب أفكاره ، واسترجاع تفاصيل المهمة المقبلة ، ولكن الراكب المجاور له قطع حبل أفكاره ، وهو يقول :

ـــ عفوًا .. هل الأخ مصرى ؟

انتبه (ممدوح) إلى الرجل للمرَّة الأولى ، فالتفت يتطلَّع إليه بعقاله العربى ، ومنظاره الأسود ، ولحيته القصيرة ، وابتسم ابتسامة مجاملة ، وهو يجيب :

ـــ هذا صحيح .. كيف عرفت ؟

ضحك الرجل ، قائلًا :

ـــ ملامحك تشى بذلك .. أقدِّم لك نفسى ، (عبد الله الزيَّان) .. من السعودية .

غمغم (ممدوح) فى اقتضاب :

ـــ تشرَّفنا .. أنا (ممدوح عبد الوهاب) .. صحفى .

وتحوَّل بوجهه إلى النافذة ، وكأنما يعلن عدم استعداده لمواصلة الحديث ، إلَّا أن جاره بدا غير مكتف بهذا التعارف المختصر ، فعاد يسأله :

ـــ ولماذا تسافر إلى (إسطنبول) ؟.. عمل أم نزهة ؟

غمغم (ممدوح) فى اقتضاب :

ـــ نزهة .

عبد الله :

ـــ أنا أيضًا أسافر لنفس الغرض .. فـ(إسطنبول)

انتبه (ممدوح) إلى الرجل للمرة الأولى ، فالتفت يتطلع إليه بعقاله العربى ، ومنظاره الأسود ، ولحيته القصيرة ..

مدينة رائعة ، تجمع ما بين سحر الشرق وحضارة الغرب ، ولا أخفى عليك أن هذا ليس السبب الوحيد لسفرى ، ولكننى سأشحن سيارتين حديثتين ، ابتعتهما من (ألمانيا) ، على أحد السفن التركية ، المتجهة إلى (جِدَّة) .. فلقد اشتريتهما خصِّيصًا لولدىَّ الحبيبين (جاسم) و (زياد) ، بمناسبة نجاحهما فى الدراسة هذا العام .

هزَّ (ممدوح) رأسه فى ضجر ، على حين تابع (عبد الله) قائلًا فى فخر :

ـــ آه لو رأيتهما !! إنهما شابان رائعان ، يشبهاننى تمامًا ، ثم إنهما متفوِّقان رياضيًّا أيضًا ، وخاصة (جاسم) .. ليتك تشاهده وهو يلعب بكرة القدم .. إنه يناور ويحاور خصومه ببراعة منقطعة النظير .

انتهز (ممدوح) فرصة مرور المضيفة ، ليتشاغل عن حديث الرجل ، وهو يقول لها :

ـــ عصير برتقال من فضلك .

التفت إليها (عبد الله) ، قائلًا :

ـــ وقهوة سادة لى .

ثم عاد يواصل حديثه مع (ممدوح) ، قائلًا :

ـ إننى فى الواقع لا أستسيغ تلك القهوة السريعة ، التى يعدُّونها فى الطائرات ، فلا شىء يعادل القهوة السعودية .. قد تبدو لك مُرَّة المذاق ، ولكن نكهتها الرائعة تجعلك تدمنها و ....

قاطعه (ممدوح) فى ضجر ، محاولًا التخلُّص من حديثه :

ـ أعتقد أننى سأغفو قليلًا ، فأنا أشعر بالإرهاق و ....

قاطعه جاره فى حماس :

ـ لا شىء يقضى على الإرهاق مثل الأحاديث المسلِّية ، وأنا أملك قدرًا كبيرًا منها ، فأنا شهير بأننى متحدِّث لبق ، أجتذب السامعين دومًا .

وقهقه فى فخر ، على حين شعر (ممدوح) بحَنَق شديد ، وبدا له أن قفص (إسطنبول) خير من هذا الرجل ، الذى واصل ثرثرته ، ولم يستمع إلى (ممدوح) ، وهو يغمغم فى حَنَق :

ـ حسنًا .. إنه جزء من متاعب المهنة .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وهو يستطرد :

ـ وأى مهنة ؟!..

* * *

٤ ـ السوق الشرقى ..

لم يكد (ممدوح) يغادر مطار (إسطنبول) ، حتى أسرع يلقى نفسه داخل واحدة من سيَّارات الأجرة ، ويطلب من سائقها فيما يشبه الرجاء ، توصيله إلى فندق (كريستال) ، وقد نسى ما ينتظره من مخاطر وأهوال ، أمام خشيته من الالتقاء بهذا الراكب الثرثار مرَّة أخرى ، بعد أن صدَّع رأسه بحديثه الطويل الممل طوال الرحلة ..

وعلى مسافة غير بعيدة كانت هناك سيَّارة أخرى تتبع سيارته ، سأل قائدها الرجل الذى يجاوره فى قلق :

ـ هل أنت واثق من أنه أحد رجال إدارة العمليات الخاصة ؟

أجابه الآخر :

ـ نعم .. إنه (ممدوح عبد الوهاب) .. لقد تعرَّفته فى المطار ، على الرغم من تنكُّره ، وجواز سفره الزائف .. فهذا الرجل بالذات هو موضع اهتمامى الخاص ، منذ ثلاث سنوات ، بعد نجاحه فى إفساد العديد من عملياتنا .. ولقد دبَّرت مخابراتنا

أكثر من خُطَّة لاختطافه وقتله ، ولكنها فشلت كلها ، فهو نَمِرٌ شرس ، يصعب صيده .

غمغم الذى يقود السَّيارة :

ــ إذن فقد أرسلوه لمساعدة عميلهم على الهرب .

أومأ الآخر برأسه ، قائلًا :

ــ بالتأكيد .. إنه الرجل الوحيد ، الذى يمكنه النجاح فى مثل هذه المهمة .

قائد السَّيارة :

ــ إذن فهى فرصة ذهبية للإيقاع بالصقر ، فهو يعرف مكانه ولا ريب .

خرج الآخر عن هدوئه لأوَّل مرَّة ، وهو يهتف فى عصبيَّة :

ــ فليذهب الصقر إلى الجحيم .. إنه سيقع فى أيدينا إن عاجلًا أو آجلًا .. إن الخطر الحقيقى يكمن فى (ممدوح عبد الوهاب) هذا ؛ فهو رجل من طراز غير عادى ، أثبتت تجاربنا دومًا أن تدخُّله يَعْنى فشل عملياتنا ؛ والوسيلة الوحيدة لمنعه من إفساد عملنا هذه المرَّة هى قتله .. الليلة .

اعترض قائد السيَّارة ، قائلًا :

ــ أخالفك الرأى يا صديقى .. إن حقدك على هذا الرجل يفقدك المنطق السليم .. إنه طعم ممتاز لاصطياد الصقر .

هتف الرجل فى انفعال :

ــ أظن أننى الرجل الذى يتولَّى هذه العملية .. أليس كذلك ؟

ابتسم الآخر قائلًا :

ــ لا ضرورة للانفعال .. سأرسل أحد رجالنا المدرَّبين ؛ لقتله ما دمت تريد ذلك .

ابتلع الرجل قرصًا مهدئًا من زجاجة صغيرة يحملها ، وهو يغمغم فى حَنَق :

ــ حاول أن تنجح ، مهما كان الثمن ، فلن أشعر بالراحة أبدًا ، طالما هذا الرجل فى (إسطنبول) .

وعقد حاجبيه ، وهو يردف فى غضب :

ــ وعلى قيد الحياة .

★ ★ ★

كان (ممدوح) منهمكًا فى إفراغ محتويات حقيبته ، فى حجرته بالفندق ، حينما سمع طرقًا على باب الحجرة ، فوضع يده على مقبض مسدَّسه ، المعلَّق فى جراب أسفل إبطه ، وهو يسأل :

ـــ من ؟

ـــ خدمة الفندق يا سيِّدى .

فتح (ممدوح) الباب قليلًا ، دون أن يرفع يده عن مقبض مسدَّسه ، أسفل سترته ، فوجد أمامه شابًا ممشوق القوام ، يرتدى ثياب الفندق الخاصَّة ، ويحمل على ساعده عددًا من المناشف النظيفة ، وهو يقول بابتسامة لطيفة :

ـــ جئت لاستبدال مناشف الحمام يا سيِّدى .

ممدوح :

ـــ لا داعى لذلك .. لدىَّ منشفتى الخاصَّة .

أجابه الشابّ فى لهجة مهذَّبة :

ـــ إنها تقاليد الفندق يا سيِّدى .

ممدوح :

ـــ حسنًا .. ضع المناشف النظيفة فى الحمام .

فى نفس اللحظة اتصل به مكتب الاستقبال بالفندق ، وأبلغه بوجود مكالمة خارجية له ، فأمسك سمَّاعة الهاتف ، ليسمع رجلًا يقول فى هدوء :

ـــ المقدَّم (ممدوح) .. أليس كذلك ؟

ممدوح :

ـــ من المتحدِّث ؟

أجابه صاحب الصوت :

ـــ الأغا .

كان الاسم يَعْنى الكثير لـ (ممدوح) ، فألقى نظرة سريعة على الحمَّام ، حيث كان الشابّ يضع المناشف النظيفة فى مكانها ، وهمس فى اهتمام :

ـــ يمكنك أن تتحدَّث .. أين الصقر ؟

أجابه الرجل :

ـــ حاول أن تلتقى بى فى السُّوق الشرقى بعد ساعة واحدة ، وسأرشدك إلى مكانه .

ممدوح :

ـــ وكيف سأتعرَّفك ؟

أجابه المتحدِّث فى هدوء :

ـــ لا تجعل هذا يقلقك .. سأتعرَّفك أنا .

همَّ (ممدوح) بوضع سمَّاعة الهاتف فى موضعها ، منهيًا الحديث ، لولا أن لاحت منه التفاتة إلى الشاب ، الذى انتهى من تغيير المناشف ، واقترب منه ، وهو يحمل إحدى المناشف على ساعده ويده ..

ولولا خبرته ما لاحظ (ممدوح) أن طرف المنشفة مرتفع قليلًا ، وأن الجسم الواضح خلفه هو فوَّهة مسدَّس مزوَّد بكاتم للصوت ، وأن الواقف أمامه ليس أحد خدم الفندق ، وإنما قاتل ..

قاتل محترف ..

* * *

كان ذلك القاتل من الطراز الأوَّل ، الذى لا يخطئ إصابة هدفه أبدًا ، من هذه المسافة القصيرة ، وكانت أصابعه تستعد لتنفيذ عمله القذر فى دقة وإحكام ..

لولا ما يتميَّز به (ممدوح) من ردِّ فعل سريع ..

وكالبرق الخاطف ، وبكل ما يملك من قوة ، هوَى (ممدوح) بسمَّاعة الهاتف على يد القاتل المحترف ، قبل أن يضغط زِناد مسدَّسه ، فسقط المسدَّس من يد الرجل ، وهو يتأوَّه فى ألم ، فى حين استغلَّ (ممدوح) عنصر المفاجأة ؛ ليسدِّد لخصمه عدة لكمات سريعة قويَّة متتالية ، جعلته يترنَّح ، ويسقط أرضًا .

والتقط القاتل المحترف مقعدًا ، وقذفه فى وجه (ممدوح) ، الذى استقبله على ساعده ، ودفعه بعيدًا ، فى نفس اللحظة التى

استلَّ فيها الرجل ، من طيَّات ثيابه ، خنجرًا ، وقفز ليطعن به (ممدوح) فى قلبه ..

وقفز (ممدوح) جانبًا ، متفاديًا طعنة الخنجر ، وأمسك معصم خصمه بحركة سريعة ، وجثَا على ركبتيه ، ودفع الرجل من خلف ظهره ، وطرحه أرضًا ، ثم قفز فوقه ، ولوَى ذراعه خلف ظهره فى قوَّة ، أجبرت الرجل على التخلِّى عن خنجره ، فالتقطه (ممدوح) ، وهو يقول :

ـــ من حسن حظك أننى فى عجلة من أمرى ، وإلَّا لقَّنتك درسًا أكثر قسوة من هذا الدرس القصير .

والتقط المسدَّس ، وهو يبتعد مردفًا فى صرامة :

ـــ والآن .. غادر الحجرة فى هدوء ، وسأحتفظ أنا بمسدَّسك تذكارًا .

وابتسم ، وهو يستطرد فى سخرية :

ـــ ولاتنس تسليم المناشف القديمة لإدارة الفندق ..

* * *

كان ذلك الشارع ، الذى يطلقون عليه اسم (السوق الشرقى) ، ضيِّقًا مزدحمًا ، يزخر بمختلف أنواع الأطعمة والملبوسات ، والسلع الاستهلاكية ، ولقد تنقَّل (ممدوح)

بين محالّه ، منشغلًا عن البضائع بالبحث عن الرجل ، الذى سيلتقى به هناك ..

وفجأة .. احتكَّ به شخص ما ، ومال نحوه يعتذر قائلًا :

ــ معذرة .. هل حضرت للصيد ؟

أجابه (ممدوح) فى سرعة :

ــ نعم .. لصيد الصقور .

تلفَّت الرجل حوله فى حَذَر ، ثم همس :

ــ اتبعنى .

سار (ممدوح) خلفه ، وسط الشارع المزدحم بالباعة والمشترين ، وشعر وكأن هذا الطريق الضيِّق لا نهاية له ، وهو يشق طريقه فى صعوبة ، والزحام يعُوقه عن السير خلف الرجل مباشرةً ، وهو يجاهد حتى لا يدعه يغيب عن بصره ..

واعترض طريقه أحد الباعة الجوَّالين ، محاولًا ترويج سلعته ، وحاول (ممدوح) إقناعه بعدم رغبته فى الشراء ، إلَّا أن الرجل أخذ يلحّ ، ويعرض بضاعته أمامه فى إصرار ، مبالغًا فى وصف جودتها ، حتى دفعه (ممدوح) فى خشونة ، وابتعد فى خطوات سريعة ، محاولًا اللَّحاق بالرجل ، ولكنه تسمَّر فجأة ، فقد كان الرجل قد اختفى وكأنما تبخَّر تمامًا ..

* * *

أخيرًا ، وبعد بحث طويل ، عثر (ممدوح) على الرجل ، ورآه يتجه نحو شارع جانبى ضيِّق ، فى نهاية السوق ، فأسرع إليه ، قائلًا :

ــ كدت أفقد أثرك .

حدَّق الرجل فى وجهه ، وهتف فى استنكار :

ــ من أنت ؟! .. إننى لا أعرفك ، ولم ألتق بك من قبل .

تراجع (ممدوح) فى دهشة ، أمام ذلك التحوُّل المفاجئ ، وتصوَّر لحظة أن موقف الرجل يعود إلى مبالغته فى التخفِّى ، إلَّا أن الحقيقة كشفت عن نفسها فى هيئة رجلين ضخمى الجثة ، دفعاه فجأة بعيدًا عن الرجل ، وقال له أحدهما فى صوت أجش :

ــ ألَمْ تسمع ما قاله أخى ؟.. إنه لا يعرفك ، ومن الأفضل أن تجد طريقًا آخر بعيدًا عنَّا .

انتبه (ممدوح) إلى أن أحد الرجلين يتأبَّط ذراع رفيقه ، والآخر يدسّ نصل سكين فى جانبه ، فاندفع محاولًا التدخُّل ؛ لحماية الرجل ، إلَّا أن عربة خشبيَّة تجرُّهَا الحِيَاد ، وتحمل أكداسًا من القشّ ، ظهرت فجأة من شارع جانبى ، وحالت بينه وبين الآخرين ، وقفز أصحابها ، وفرُّوا هاربين .. فما كان منه إلَّا أن قفز فوقها ، وشدَّ لجام جواديها ، لينحِّيَها جانبًا ،

إلا أن عربة خشبية تجرُّها الجياد ، وتحمل أكداسًا من القش ، ظهرت فجأة من شارع جانبى ، وحالت بينه وبين الآخرين ..

ولكن كان الأوان قد فات ، إذ قفز الرجلان ومعهما صيدهما ، داخل سيَّارة سوداء ، انطلقت بهم مبتعدة ..

وشعر (ممدوح) بخطورة الموقف ، فقد فقد مرشده ، الذى كان من المفروض أن يقوده إلى مخبإ الصقر ، وفضلًا عن ذلك ، فوقوع هذا المرشد فى أيدى الأعداء ، يَعْنى أن الخطر قد أصبح يُحْدِق بـ (فريد) حقًا ..

وفجأة .. وبينما كان غارقًا فى أفكاره ، انقضَّ عليه رجل ، من فوق سور قديم ، وأحاط عنقه بسلك رفيع ..

ورأى (ممدوح) الموت على قيد خطوة واحدة منه ..

* * *

٥ ــ طريق الأشباح ..

شدَّد المهاجم من ضغط السلك الرفيع على رقبة (ممدوح) ، الذى شعر بالاختناق والألم ، وخصمه يجذبه فى قوَّة إلى كُومَةِ القَشّ ، التى تحملها العربة ، حتى غاص فيها الاثنان ، فيما عدا وجهيهما ، وخصم (ممدوح) يخفى وجهه بقناع من الصوف الثقيل ، لا تبدو منه سوى عينيه ، اللتين تحملان كل القسوة ، والإصرار والوحشية ، فى حين جحظت عينا (ممدوح) من فرط الألم والاختناق ..

وفجأة .. قفز شخص آخر من فوق السور ؛ ليلهب ظهر الجياد بسَوْطه ، فانطلقت العربة بعيدًا عن منطقة (السوق الشرقى) ، و (ممدوح) يناضل للتخلُّص من خصمه ، والسلك المعدنى الرفيع يغوص فى عنقه ، ويكاد يسلب الروح من جسده ..

وكان الموت يقترب فى سرعة ، ولا يفصله عن (ممدوح) سوى ثوانٍ معدودة ..

وفى محاولة أخيرة ، وإصرار على رفض فكرة الموت على هذا

النحو ، التقط (ممدوح) قدَّاحته من جيبه ، وأشعلها بسرعة ، قبل أن يهطن غريمه إلى هدفه ، وألقاها خلف ظهر خصمه ، الذى فوجئ بالنيران تشتعل فى القش الجاف ، وتعلق بثيابه ، فتخلَّى عن السلك المعدنى ، وعن عنق (ممدوح) ، وتلاشت كل الأهداف من ذهنه ، سوى رغبته فى النجاة ، فألقى نفسه من العربة ، غير مبال بسرعة اندفاعها ..

ورأى قائد العربة رفيقه ، الذى تحوَّل إلى كتلة من النيران ، ورأى (ممدوح) يهمّ بالقفز من العربة ، قبل أن تصل إليه النيران ، فراح ينهال على جسده بسَوْطه ، ويلهبه بضرباته فى غضب وثورة ، محاولًا منعه من الفرار ، ولكن (ممدوح) تحمَّل ضربات السَّوْط فى إصرار ، ووثب نحو خصمه ، وأحاط وسطه بذراعيه ، ليهوى الاثنان من العربة ، التى واصلت اندفاعها ، وقد أثارت النيران المشتعلة فى حمولتها الجوادين ، وجذبت أنظار المارَّة ، بعيدًا عن صراع (ممدوح) مع خصمه ..

وحسم (ممدوح) الصراع بلكمة ساحقة ، هوَت على فكّ خصمه كالقنبلة ، ثم جذبه إليه ، وأراد أن يجبره على الاعتراف بالمكان الذى ذهب إليه المرشد ، ولكنه لمح سيَّارات الشُّرطة تقترب فى سرعة ، ورأى جمهرة من المارة تعدُو نحوه ، وخشى أن

يفسد ذلك التدخُّل مهمته ، خاصةً وهو يعلم بوجود بعض العلاقات المشبوهة ، بين بعض رجال الشرطة التركية ، والمخابرات (الأسترتانية) ، مما دفعه إلى التخلّى عن خصمه ، وركض حتى سور قصير ، لمنزل من طابق واحد ، ووثب فوقه ، وانطلق يعدُو فوق أسطح المنازل المتقاربة ، حتى صار بعيدًا آمنًا ..

كانت آثار السلك المعدنى ما زالت ظاهرة على عنقه ، وبات من الواضح أنها لن تُمحى قبل مرور زمن طويل ، ولم يكن قد تخلّص تمامًا من الآلام ، التى خلّفها ضغط السلك على عنقه ، إلّا أن عقله انشغل عن كل ذلك بالمصير الذى سيئول إليه الصقر ، لو سقط بين أيدى (الأسترتانيين) ..

إنه يعرف الكثير عن وسائلهم فى استخلاص الاعترافات ، ومن المؤكّد أن المرشد التركى لن يصمد أمامهما طويلًا ، وأنه لن يلبث أن ينهار ، ويدلى إليهم بمخبإ (فريد) ، فتكون فى هذا نهاية الصقر ، الذى لن يتردَّدوا فى ذبحه بلا رحمة ، متى وقع فى أيديهم .

وفجأة .. ومض شىء ما فى ذهن (ممدوح) ..

لقد تذكّر أن يده قد احتكّت بورقة صغيرة فى جيبه ، وهو يلتقط قدَّاحته ..

كان من العجيب حقًّا أن تبرز تلك المعلومة البسيطة فى ذهنه ، وسط ذلك الخضمّ من الأحداث والأفكار ، ولكن الحاسَّة المتفوّقة ، التى يتمتع بها ، أيقظت هذا الشعور فى ذهنه ، فأسرع يلتقط تلك الورقة من جيبه ، وفردها ؛ ليقرأ عليها عبارة تقول : « إذا ما أصابنى أى مكروه ، فاذهب إلى العنوان المدَّون أسفل هذه العبارة ، وستجد ما تبحث عنه » .

وأسفل العبارة كان العنوان مدوَّنًا فى وضوح مع توقيع (الأغا) ..

لقد اصطدم به المرشد بالفعل ، قبل أن يعرِّفه نفسه ، ولا ريب أنه كان يتوقَّع بعض المتاعب مع رجال المخابرات (الأسترتانية) ، فدوَّن هذا العنوان ، ودسَّه فى جيب (ممدوح) ، زيادة فى الاحتياط ..

وعاد الأمل ينتعش فى قلب (ممدوح) ، وتساءل : هل سينجح فى الوصول إلى هذا المكان ، قبل أن يقع (فريد) فى براثن رجال المخابرات (الأسترتانية) ؟..

هل سبقوه إليه ، بعد أن أجبروا المرشد على الاعتراف ؟..

لقد بدأ السباق ، وعليه أن ينطلق بأقصى سرعة .. من أجل الصقر ..

* * *

أوقف سائق سيارة الأجرة سيارته ، عند مدخل طريق غير ممهَّد ، تمتد أمامه ساحة كبيرة من المستقعات الطينية ، والأخشاب ، وقال لـ (ممدوح) :

ــ تستطيع أن تكمل الطريق وحدك لو أردت ، فالمنزل الذى تقصده يقع على بعد ثمانين مترًا من هنا ، فلست أرغب فى المضىّ فى طريق الأشباح هذا .

نقده (ممدوح) أجره ، وهو يقول :

ــ شكرًا لك ، يمكنك أن تعود ، وتتركنى للأشباح .

عاد الرجل أدراجه ، وهو يغمغم فى دهشة :

ــ لا ريب أنه مجنون ، حتى يبقى فى مكان كهذا وحده !

أما (ممدوح) فقد سار فى هذا الطريق المظلم الموحش ، حتى بلغ منزلًا قديمًا ، محاطًا بأسوار عالية ، وأشجار برِّية ، وتوقَّف أمام بوَّابته الضخمة ، التى تركها بعضهم شبه مفتوحة ، وكأنما تركها من أجله بالذات ، مما جعله يُوقن من أنه يسير نحو كمين معدّ له بالداخل ، فتحسَّس مسدَّسه فى جرابه ، وعدَّل رباط عنقه فى عناية ، وكأنما هو فى طريقه إلى سهرة فاخرة ، ودفع البوَّابة الحديدية ، واجتازها فى هدوء إلى حديقة المنزل ، وتقدَّم فوق أرضها الجرداء ، وبين أشجارها الذابلة فى حذر المحترف ،

وإصرار الانتحارى ، واختفى خلف إحدى الأشجار ، يرقب ذلك المنزل القديم ، الذى بدا بطرازه العتيق منسجمًا مع المنطقة الموحشة المحيطة به ..

وطاف (ممدوح) بالفناء المحيط بالمنزل فى حَذَر ، وهو يتحسَّس طريقه فى الظلام ، حتى عثر على دَرَج ، ارتقاه فى خفَّة وسرعة ، دون أن يصدر عنه أدنى صوت ، حتى وصل إلى باب صغير ، تركه بعضهم نصف مفتوح أيضًا ..

وفى هدوء .. دفع (ممدوح) ذلك الباب ، ولكن الصَّرير الذى أحدثته مفصَّلات الباب القديمة ، حطَّم ذلك الهدوء ، ووجد (ممدوح) نفسه فى رَدهة صغيرة ، يتصدَّرها سُلَّم آخر ، ارتقاه (ممدوح) فى سرعة وحَذَر ، فألفَى نفسه فى شرفة كبيرة مستديرة الشكل ، تطلّ على قاعة كبيرة ، يضيئها مصباح خافت ، تطلَّع إليها فى حذر ، فرآها خالية من الأثاث تمامًا ، وعلى أرضها تمدَّد أربعة رجال خمدت حركتهم تمامًا ، وأحاطت بهم بركة من الدم تؤكِّد أنهم ضحايا مجزرة وحشية دامية ، وأن رجال المخابرات (الأسترتانية) قد سبقوه إلى عش الصقر ، واقتنصوه قبل أن يبلغه هو ، ولا ريب أنهم ينشدون عنقه الآن ، وأنهم هنا ، فى مكان ما ..

وغمغم (ممدوح) فى حَنَق :

ــ حسنًا ، فليبدأ كشف الأوراق .

وأطلق من مسدَّسه رصاصة محكمة ، أغرقت المكان فى ظلام دامس ، بعد أن حطَّمت المصباح الخافت ..

وبدأت مواجهة الذئاب ..

* * *

٦ ــ مواجهة الذِّئاب ..

فيمـــا عدا دوىّ رصاصة (ممدوح) ، وصوت تهشَّم المصباح ، فقد ظلَّ السكون يُخيِّم على المكان ، مختلطًا بالظلام ، وبدا وكأن الذِّئاب ترفض مغادرة أوكارها ، أو لم تستعد لذلك بعد ..

وخامرت (ممدوح) رغبة قويَّة فى تحطيم هذا السكون المُطْبَق ، وإثارة الذِّئاب ، فتناول المقعد الوحيد فى الشُّرفة ، وألقى به وسط القاعة .. ولم يكد دوىّ ارتطام المقعد بالأرض يرتفع ، حتى أضاء مصباحان قويَّان فى موقع سقوطه ، وانهالت عليه الرصاصات ، وقد ظنَّ الذئاب أن (ممدوح) قد قفز إلى وسط القاعة ..

وفى سرعة أطلق (ممدوح) رصاصاته على المصباحين ، وحولهما ، وتهشَّم زجاجهما بدوىٍّ هائل ، امتزج بصيحة ألم ، وصوت سقوط جسم على الأرض ، وسمع (ممدوح) صوت أقدام تهرْوِل مبتعدة ، فصوَّب فُوَّهة مسدَّسه نحو الصوت ،

معتمدًا على سمعه المرهف ، وحاسَّته السادسة ، ولكن الضوء سطع فى الشرفة فجأة ، وسمع (ممدوح) صوتًا من خلفه يقول :

ــ ألقِ مسدَّسك أرضًا ، وَدَعْنى أرَى ذراعيك فوق رأسك أيها المقدَّم ..

كانت مفاجأة حقيقية ، إلَّا أن (ممدوح) ظلَّ متماسكًا ، وألقى مسدَّسه ، وهو يستدير لمواجهة خصمه فى هدوء ، فرأى فى مواجهته رجلين ، أحدهما قصير ، تحمل وجنته ندبه قديمة ، له عينان باردتان ، نصف مغلقتين كعينى التمساح ، والآخر طويل نحيل ، تلُوح القسوة واضحة فى مُحيَّاه ، على الرغم من اصفراره وهزاله .. وأدرك (ممدوح) ــ من النظرة الأولى ــ أن القصير هو صاحب الأمر ، فقد كانت عيناه تشفَّان عن التصميم وروح القيادة ، فى حين بدا الآخر من ذلك الطراز ، الذى يصلح لتنفيذ الأوامر فحسب ، ولم يلبث استنتاجه هذا أن أعلن صحته ، حينما قال القصير للنحيل فى لهجة آمره :

ــ فتِّشه جيِّدًا .

أعاد النحيل مسدَّسه إلى جرابه ، وهمَّ بالتوجُّه إلى (ممدوح) ، إلَّا أن القصير استدرك فى سرعة :

ــ كلَّا .. أعطنى مسدَّسك ، فلدىَّ تعليمات مشدَّدة

بعدم الاقتراب من ذلك الرجل بأى سلاح ، فقد يقلب الموقف ضدنا .

أطاع النحيل الأمر فى استسلام ، واتجه إلى (ممدوح) ، وأخذ يفتِّشه بعناية فائقة ، حتى خُيِّل لـ (ممدوح) أنه سيبحث عن أيَّة أسلحة مختفية تحت جلده ، إلى أن تحوَّل إلى القصير ، وقال :

ــ إنه لا يحمل أيَّة أسلحة أخرى .

ثم تراجع إلى موقعه الأول ، على حين قال القصير ، وهو يصوِّب سلاحه إلى (ممدوح) :

ــ والآن أيها المقدَّم .. إن لدىَّ أوامر مشدَّدة بإطلاق عدة رصاصات على قلبك مباشرة .

ابتسم (ممدوح) ، وهو يقول فى ثبات يثير الدهشة والإعجاب :

ــ من الواضح أنك من ذلك النوع الروتينى ، الذى ينفِّذ التعليمات الصادرة إليه بحذافيرها .. ولكن بعد تأكُّدك من أننى لا أحمل أيَّة أسلحة ، هل تسمح لى بتسوية ثيابى ، فأنا لا أطيق مفارقة الحياة فى هيئة رَثَّة .

انفرجت شفتا القصير عن نصف ابتسامة ، أبرزت أسنانه القذرة ، غير المنتظمة ، وزادت ملامحه بشاعة ، وهو يقول :

ـــ إنك تروق لى أيها المقدّم ؛ لذا فسأخالف التعليمات ، وأمنحك ثانيتين فقط تهندم فيهما مظهرك ، لتستقبل الموت أنيقًا كما ترغب ، ولكننى سأختصرهما إلى جزء من الثانية ، لو لمست جيوبك ، على الرغم من خلوّهما من الأسلحة .

واتسعت ابتسامته فى سخرية ، وهو يستطرد :

ـــ وإن كنت أرى عدم جدوى الأناقة ، مادام الدم سيلوّث الثّياب .

ظلَّ (ممدوح) محتفظًا بابتسامته ، وهو يقول :

ـــ ستطمئن نفسى إلى أننى لم أهمل أناقتى طيلة عمرى على الأقل .

وفى هدوء ، أخذ يعدِّل من رباط عنقه ، ويشدّ أكمامه ، كما لوكان مقبلًا على موعد غرامى ، وليس على موت محتوم ، وفى هدوء رفع كفّه إلى الدبُّوس الذهبى الأنيق ، الذى يزيّن رباط عنقه ، كما لو كان سيعدِّل من وضعه ، ولكن سبَّابته ضغطت زرًّا دقيقًا فى الدبُّوس ، فانطلق منه شىء أشبه بومضة برق ، قبل أن يدرك القصير ما تَعْنِيهِ ، شعر بلسان من النار يخترق قلبه ، ويحترق داخله ، فجحظت عيناه فى ألم ورعب ، وأدرك لجزء من الثانية طبيعية تلك الأشعة القاتلة ، قبل أن يهوى جثّة هامدة ..

واتسعت عينا النخيل فى ذهول ، واختفت القسوة من ملامحه ، مع ذلك الرُّعب الذى ملأ كيانه ، ومع ندمه الشديد على تخلّيه عن سِلاحه للقصير ، فقد انقضَّ عليه (ممدوح) كالصاعقة ، ولكمه فى معدته ، وركله فى ساقه ، ثم حمله فى خفَّة وسرعة ، وألقَى به من الشرفة ، وسمع صرخته اليائسة ، قبل أن يرتطم بالأرض .. ولكن إرادة ذلك النحيل كانت فولاذية بحقٍّ ، فعلى الرغم من عنف السقوط ، إلَّا أنه أخذ يزحف أرضًا فى صعوبة ، محاولًا الوصول إلى البندقية الآلية ، التى تخلَّفت عن مصرع الرجل ، الذى قتله (ممدوح) فى بداية الصراع ، وقبل أن تحيط قبضته بها ، أرداه (ممدوح) قتيلًا برصاصة من مسدَّسه ، ثم اعتدل فى هدوء ، وأخذ يعدِّل من رباط عنقه ، والتفت إلى جثة القصير ، قائلًا :

ـــ هذه هى نتيجة عدم الالتزام بالتعليمات أيها الحقير ، كان ينبغى أن تطلق النار على ظهرى مباشرة ، بدلًا من هذا الاستعراض ، وكنت ستحصل على وسام الشجاعة .

خُيِّل إليه أنه يسمع أنينًا من القاعة ، فتطلَّع إلى أسفل ، ليرى رجلًا يزحف فى ألم ، فقفز من الشُّرفة إلى القاعة ، وأسرع إليه ..

فقد انقضَّ عليه (ممدوح) كالصاعقة ، ولكمه فى معدته ، وركله فى ساقه ، ثم حمله فى خفَّة وسرعة ، وألقى به من الشرفة ..

كان الرجل يناهز الخمسين من العمر ، وكانت إصابته بالغة ، ولكنه كان الوحيد الذى نجا من مذبحة (الأسترتانيين) ، وانحنى نحوه (ممدوح) ، وهو يقول :

ـ لا تخف .. سأحاول إسعافك .

غمغم الرجل فى أنين مذعور :

ـ من أنت ؟

ممدوح :

ـ المقدَّم (ممدوح عبد الوهاب) ، من إدارة العمليات الخاصة المصرية .

غمغم الرجل فى تشكُّك ، والدماء تنزف من جرحه فى غزارة :

ـ ما الذى يثبت ذلك ؟

قال (ممدوح) العبارة السِّرِّيَّة فى هدوء :

ـ لقد جئت لصيد الصقور .

تنهَّد الرجل فى ارتياح ، وهمَّ بالحديث ، إلَّا أن عينيه اتسعتا فجأة فى رعب ، وصاح وهو ينظر خلف (ممدوح) :

ـ احترس :

واستدار (ممدوح) فى سرعة ، ليرى آخر (الأسترتانيين) ، وهو يصوِّب إليه بندقيته ، وأصابعه تضغط الزِّناد .

* * *

جاء رد فعل (ممدوح) سريعًا ، فائقًا ، فقد التقط خنجرًا معلَّقًا بحزام المصاب ، الذى يرقد أمامه ، ودار على عقبيه بسرعة البرق ، وقذف الخنجر نحو الأسترتانى ، فغاص حتى مقبضه فى قلب الرجل الذى ترنَّح ، وترك بندقيته تسقط ، ثم هوَى إلى جوارها جُثَّة هامدة ، فتنهَّد (ممدوح) ، وهو يغمغم :

ــ يا إلٰهى !! .. كدت أنسى هذا الرجل ، الذى فرَّ عندما حطَّمت المصباحين .

ثم التفت إلى المصاب ، الذى يعانى سكرات الموت ، والذى تمتم فى ضعف :

ــ الآن يمكننى أن أثق بك .. لقد كنا نخفى الصقر هنا ، ولكن الأسترتانيين وصلوا قبلك ، وقتلوا الجميع ، واصطحبوا الصقر معهم ، ولقد سمعت أحدهم يقول : إنهم سيأخذونه إلى مزرعة التبغ الجبلية ، التى يملكها (جاويد) بك ، وهو من رجال العصابات الخطرين .

ممدوح :

ــ ألا يوجد هاتف هنا ، لاستدعاء طبيب ؛ لإسعافك ؟

غمغم الرجل بكلمات متهالكة :

ــ لا فائدة إنها أنفاسى الأخيرة .. المهم ألا تذهب أرواحنا سُدًى .. حَذَارِ أن تواجه (جاويد) وحدك ، فهو رجل شديد الخطـــورة ، كثير الأعـــوان .. اذهب أوَّلًا إلى مُقْهَـــى (الأناضول) ، فى شارع (أتاتورك) ، واطلب مقابلة (رستم) .. إنه معروف هناك .. قل له إنك قادم من طرف الشيخ (نشأت) ، وقدِّم له هذه القلادة .. ثِقْ أنه سيساعدك فى مهمتك ، فهو من أخلص رجالى .

حاول الرجل أن تنتزع القلادة من عنقه ، إلَّا أن القدر لم يمهله إلَّا شهقة واحدة ، عادت بعدها روحه إلى بارئها ، فأغلق (ممدوح) جفنيه ، والتقط القلادة ، وضمَّ عليها قبضته ، وهو يقول فى حزم :

ــ سأفعل .

★ ★ ★

٧ ــ الذراع الفولاذية ..

كان طوله يناهز المترين ، له رأس ضخم ، وشارب كثّ غليظ منمّق ومفتول إلى أعلى ، وبنيان ضخم قوىّ متين ..

هكذا كان (رستم) ، الذى حَدَج (ممدوح) بنظرات مستريبة ، قبل أن يسأله بصوته القوىَ الأجش :

ــ هل تسأل عنّى ؟

ممدوح :

ــ هل أنت (رستم) ؟

أجابه فى غلظة :

ــ ماذا تريد من (رستم) ؟

ممدوح :

ــ جئتك من طرف الشيخ (نشأت) .

تفرّس العملاق فى وجهه قليلًا ، قبل أن يقول فى خشونة :

ــ لست أعرف أحدًا بهذا الاسم .

أبرز (ممدوح) القلادة ، دون أن يضيف حرفًا واحدًا ،

فانفجرت أسارير العملاق ، وجذب أحد مقاعد المُقْهَى ، وجلس فوقه فى وضع عكسىّ . أمام مائدة (ممدوح) ، قائلًا :

ــ إننى فى خدمة الشيخ (نشأت) ؛ وأصدقائه دومًا .

قال (ممدوح) فى بطء :

ــ لقد قُتِلَ الشيخ (نشأت) ليلة أمس .

انقلبت سِحْنة الرجل ، وجذب (ممدوح) من ياقته ، وهو يقول فِى حِدَّة واستنكار :

ــ أيّة أكذوبة هذه ؟

أجابه (ممدوح) فى هدوء :

ــ إنها الحقيقة .. لقد قُتِلَ الشيخ (نشأت) ليلة أمس ، على يد عملاء المخابرات الأسترتانية ، وبمعاونة رجل يُدْعى (جاويد) بك .

تخلّى العملاق عن ياقة (ممدوح) ، وانهار فوق مقعده باكيًا ، وهو يقول :

ــ الشيخ (نشأت) قُتِلَ !! .. يا للهول !! .. هل هذا معقول ؟!

ثم توقّف فجأة ، ليسأل (ممدوح) فى انفعال :

ــ ولكن ما علاقة (جاويد) بك بالمخابرات الأسترتانية ؟

ممدوح :

ـــ إنه يتعاون معهم ، كما كان الشيخ (نشأت) يتعاون معنا ، مع فارق أن (جاويد) من أكبر تجّار المخدّرات ، والشيخ (نشأت) كان رجل خير وبر .

تهدّل كتفا (رستم) العريضتين ، وهو يقول فى حزن :

ـــ لقد كنت أحد الذين امتدّ إليهم خير الشيخ (نشأت) .. لقد تعهّدنى برعايته ، بعد خروجى شريدًا ضائعًا من السجن .

ممدوح :

ـــ هل دخلت السجن ؟

رستم :

ـــ نعم .. لقد كنت أعمل فى خدمة (جاويد) بك ، ووقعت فى قبضة الشُرطة فى أثناء إحدى عمليات التهريب ، ولقد تخلّى عنّى (جاويد) ـــ حينذاك ـــ واعتبرنى مجرّد ورقة محترقة ، أما الشيخ (نشأت) ، فقد تعهّدأسرتى برعايته ، فى أثناء إقامتى بالسجن ، وحتّى بعد خروجى منه ، وأنا أدين له بحياتى كلّهَا .

ممدوح :

ـــ لقد أخبرنى قبل موته (رحمه الله) أنه يمكننى الاعتماد عليك ؛ للوصول إلى (جاويد) بك ، فى مزرعته الجبلية .

رستم :

ـــ ولماذا تريد الذهاب إلى هناك ؟

ممدوح :

ـــ لقد خطف الأسترتانيون أحد رجال المخابرات المصرية ، وأخفوه هناك ، تمهيدًا لنقله إلى دولتهم ، ومهمّتى هى أن أحُول بينهم وبين ذلك .

رستم :

ـــ يمكنك الاعتماد علىّ تمامًا .. متى تحبّ أن تذهب ؟

ممدوح :

ـــ الليلة لو أمكن .. فكلما أسرعنا كانت فرصتنا أفضل ..

ارتسمت الصرامة فى وجه (رستم) ، وأطلّت من عينيه ، وهو يقول فى غضب :

ـــ نعم .. الليلة .. الليلة أنتقم للشيخ (نشأت) .

* * *

ارتقى (ممدوح) و (رستم) التلال الخضراء ، فى طريقهما إلى مزرعة (جاويد) بك ، وعندما صارا على مسافة قريبة منها ، قال (رستم) :

ـــ المزرعة هناك ، فى باطن الجبل ، خلف ذلك التل ، وهناك رجلان مسلّحان يربضان فوق التلّ دومًا ؛ لمراقبة الطريق والتلال المحيطة بالمزرعة ، وحراستها .

وضع (ممدوح) منظاره المقرَّب فوق عينيه ، وقال وهو يراقب تحرُّكات الرجلين من خلاله :

ـــ هذا يزيد من صعوبة الأمر بالتأكيد ، فسيلمحاننا حتمًا من موقعهما هذا ، إذا ما حاولنا الاقتراب .

أجابه (رستم) فى هدوء :

ـــ دَعْ هذا الأمر لى .

ثم نزع الحزام الجلدى لبندقيته الآلية من كتفه ، فاستوقفه (ممدوح) قائلًا :

ـــ آخر ما أرغب فيه هو أن يشقّ دويّ الرصاصة سكون المكان يا صديقى .

ابتسم (رستم) ، قائلًا :

ـــ ومن قال إن هذا سيحدث ؟ ألم تسمع قطّ عن (رستم) ، بطل رمى القرص القديم ؟ .. إنهم مازالوا يطلقون علىَّ اسم (الذراع الفولاذية) ، حتى بعد تلك السنوات التى قضيتها فى السجن .

ثم فتح حقيبته الجلدية السَّوداء ، وأخرج منها كرتين حديديتين ، قائلًا :

ـــ إن طريقتى صامتة ، وفعَّالة .

ودون أن ينتظر جواب (ممدوح) ، أخذ يزحف بين الحشائش الخضراء ، متخذًا من الشمس الغاربة ، وزيِّه الأخضر المنسجم مع الطبيعة ، ستارًا ، حتى أصبح على مسافة عشرين مترًا من التلّ ، فانتصب فجأة ، ودار حول نفسه فى سرعة ومهارة ، وألقى واحدة من الكُرَتين ، شقَّت طريقها كالبرق ، واصطدمت برأس أحد الرجلين ، وهو يستعدّ لإشعال سيجارته ، فهوَى جثة هامدة ، وقد احتبست صرخته فى حلقه ، وأسرع إليه زميله فى دهشة ، ولكن الكُرَة الثانية ارتطمت بصدغه ، فسقط إلى جوار رفيقه بلا حراك ..

وبرز (ممدوح) من مكمنه ، وأسرع نحو (رستم) ، وهو يبتسم ، قائلًا :

ـــ رائع يا صديقى .. لقد حطَّمت الرقم القياسىّ .

أجابه (رستم) ، وهو يتناول بندقيته الآلية :

ـــ لقد شحَذ سخطى على مصرع الشيخ (نشأت) غضبى ، فجاء أدائى معبِّرًا عن ذلك .

وألقى واحدة من الكرتين ، شقت طريقها كالبرق واصطدمت برأس أحد الرجلين ، وهو يستعد لإشعال سيجارته ، فهوى جثة هامدة ..

ثم أشار إلى التل ، مستطردًا :

ـــ والآن .. هيَّا نصعد ذلك التل ، قبل أن يستردّ الرجلان وعيهما .

ألقى (ممدوح) نظرة سريعة على الرجلين ، ثم ابتسم وهو يقول :

ـــ لا أظن أن ذلك سيحدث سريعًا .

ثم انطلق الاثنان يَعْدُوَان نحو التلّ ، فى طريقهما إلى مزرعة الشيطان ..

* * *

٨ ــ مزرعة الشيطان ..

كان الليل قد أرخى أستاره ، حينما هبط الاثنان من الجانب الآخر للتلّ ، حيث تمتدّ مساحة شاسعة من أشجار التبغ ، فى باطن الجبل ، ولمح (ممدوح) مجموعة من الرجال ، يجلسون حول نيران مشتعلة ، وهم يتسامرون ، ويدخّنون التبغ .. وتطلّع (رستم) من خلال منظاره المكبِّر إلى المنزل الأنيق ، الذى فى نهاية المزرعة ، وتحيط به أسوار عالية ، وأبواب إليكترونية ، وغمغم فى سخط :

ــ هذه هى أكبر المشاكل ، فهذه الأبواب تُفتح بوسائل معقَّدة ، والأسوار مزوَّدة بكاميرات تليفزيونية ، تنقل إليهم صورة كل من يقترب منها .

ممدوح :

ــ لا عليك .. لقد تولّيت أنت أمر الحارسين ، فَدَعْ لى كل ما يتعلّق بالإليكترونيّات .

وتناول من جيب سترته الداخلىّ زجاجة متوسّطة الحجم ،

لم يكد (رستم) يقرأ المدوَّن على غلافها ، حتى علَت الدهشة وجهه ، فابتسم (ممدوح) ، وهو يقول :

ــ هل يدهشك أن أحمل فى جيبى زجاجة (شامبو) لغسيل الشعر ؟.. منذ متى لم تغسل شعرك بمثلها ؟.

هتف (رستم) فى دهشة :

ــ منذ مولدى !

ضحك (ممدوح) ، وقال وهو يرجّ الزجاجة فى قوة :

ــ لست أنصحك باستخدام هذا النوع على أيّة حال .

وقبل أن يفهم (رستم) ما يعنيه (ممدوح) ، رفع هذا الأخير غطاء الزجاجة ، فانطلقت منها فقّاعات غازية عجيبة الشكل ، انطلقت نحو الأسوار ، وقال (ممدوح) فى نبرة جادّة :

ــ هذه الفقّاعات عبارة عن تركيبة كيميائية خاصّة ، ذات خواصّ مغناطيسية ، تنجذب نحو عدسات الكاميرات التليفزيونية ، وتنفجر فور ارتطامها بها ، فتحجب عنها الصُّور ، وتثبّت الصورة الأخيرة ، التى التقطتها تلك الكاميرات لنصف ساعة كاملة ، أعتقد أنها تكفى لنجتاز الأسوار .

غمغم (رستم) مشدوهًا :

ــ ولكن ألن يلحظوا تلك الفقّاعات ، قبل أن تصطدم بالعدسات .

ممدوح :

ــ اطمئن .. إنها ذات طبيعة هلاميّة غير منظورة ، ولقد رأيتها الآن فقط ؛ لأنها لم تكمل تكوينها بعد .

حكَّ (رستم) رأسه ، وهو يغمغم فى حَيْرَة :

ــ وسائلكم عجيبة أيها المصريون !.. إننى أفضّل الوسائل الأقلّ تعقيدًا .

ألقَى (ممدوح) الزجاجة الفارغة جانبًا ، وقال :

ــ كما يحلُو لك يا صديقى ، ولكن هيَّا نبدأ ، حتى لا نضيع مزيدًا من الوقت .

وانطلق الاثنان يزحفان وسط الأعشاب وأشجار التبغ ، حتى بلغا البوَّابة الرئيسية ، فوجَّه (ممدوح) ساعته نحوها ، وأخذ يضغط أزرار الساعة على نحو منتظم ، مما دفع (رستم) إلى أن يسأله فى حَيْرة :

ــ ماذا تفعل ؟

ممدوح :

ــ أفسد عمل الشفرة الإليكترونية ، التى تتحكَّم فى حركة البوَّابة .

لم يكد يتم عبارته ، حتى فُتِحَتِ البوَّابة فى هدوء ، فأشار إلى (رستم) ، واندفع الاثنان عَبْرها إلى داخل المكان ، وقبل أن يبلغا المبنى الداخلىّ ، هتف صوت يحمل كل الدهشة :

ــ من أنتما ؟.. وكيف دخلتما إلى هنا ؟.

وعلى بعد خطوات ، برز أمامهما رجلان مسلَّحان ، وفوَّهتا مدفعيهما يحملان الموت ..

* * *

لم ينتظر المسلَّحان طويلًا حتى يأتى الجواب ، فلم يكد أوَّلهما يتمّ عبارته ــ السالفة الذكر ــ حتى قفز (ممدوح) نحوه ، وسدَّد إلى وجهه ركلة قويَّة عنيفة ، فى حين اندفع (رستم) نحو الآخر ، وحطَّم فكّه بكعب بندقيته الآلية ، وفى براعة وإحكام .. شلَّ (ممدوح) حركة خصمه ، وجرَّده من سلاحه ، ثم أطاح به فى الهواء ، وحسم معركته معه بلكمة أخيرة قويَّة ، فى حين قبض (رستم) على عنق غريمه فى قوَّة ، وراح يضرب رأسه فى جِذْع شجرة قريبة ، حتى أفقده الوعى ، ثم أخرج من حقيبته حبلًا قويًّا ، قيَّد به الرجلين فى سرعة ، ووضع على فميهما شريطًا لاصقًا ، وهو يقول لـ (ممدوح) :

ــ هكذا نضمن العمل فى هدوء .

وأسرعا نحو المبنى ، وأخرج (رستم) من حقيبته حبلًا متينًا ، ينتهى بخطّاف قوىّ ، وهو يقول :

ــ سترى الآن أن الوسائل القديمة ما زالت صالحة .

وألقى الحبل إلى أعلى ، ليتعلَّق بحاجز إحدى النوافذ المفتوحة ، ثم أشار بيده على نحو مسرحى ، مستطردًا :

ــ إنها طريقة غير مهذَّبة ، لدخول منازل الآخرين ، ولكنها الوسيلة الوحيدة لنحتفظ برءُوسنا فوق أكتافنا .

أسرع (ممدوح) يرتقى الحبل ، وهو يغمغم :

ــ ما زال أمامنا الكثير ، لنحتفظ بها فى هذا الموضع يا صديقى .

وأطلَّ برأسه داخل الحجرة ، التى أوصله إليها الحبل ، ولم يكد يطمئن إلى خلوّها حتى قفز داخلها ، وتبعه (رستم) ، وقد تشبَّث كل منهما ببندقيته ، تحسُّبًا للمفاجآت ، ودفع (ممدوح) باب الحجرة فى هدوء ، فوجد أمامه رَدهة طويلة ، مضاءة ببعض الأنوار الخافتة ، فسار عَبْرها فى حَذَر ، وهو يرفع مدفعه أمامه ، وأدار (رستم) وجهه ، وسار خلفه عكسيًّا ، ومدفعه مصوَّب إلى الجهة الأخرى .

وفجأة .. برز شخص من حجرة جانبية ، وهو يحمل فى يده

زجاجة خمر وكأسين ، وكان من الواضح أن رؤيتهما قد أفزعته وأدهشته للغاية ، فقد فغر فاهُ ، وجحظت عيناه ، وسقطت الزجاجة ، وسقطت الكأسان من يده ، وتهشَّمتا أرضًا .. وخشى (رستم) أن يثير هذا الانتباه لوجودهما ، فانقضَّ على الرجل ، وهوَى على رأسه بضربة قويَّة ، أفقدته الوعى ، ثم واصل مع (ممدوح) سيرهما عَبْر الرَّدهة الممتدَّة ..

وفى نفس اللحظة كان (جاويد) يجلس فى بهو المنزل السفلى ، مع رجل المخابرات (الأسترتانية) ، المكلَّف اختطاف الصقر ، وإلى جوارهما أحد رجاله ، يراقب شرفة الفناء المحيط بالمنزل ، حاملًا مدفعه الرشَّاش .. ولم يكد صوت الزجاج المهشَّم يبلغهم ، حتى هتف رجل المخابرات الأسترتانية :

ــ ما هذا ؟

أجابه (جاويد) فى هدوء :

ــ يبدو أن (دراز) قد أفرط فى الشَّراب ، فأسقط الزجاجة كعادته .. ولكن اطمئن ، سأرسل رجلًا آخر ؛ لإحضار شرابك المفضَّل .

قال (الأسترتانى) فى ضيق :

ــ دَعْكَ من هذا الآن ، لقد أنهينا كل الإجراءات ،

وسيقوم رجالى بنقل العميل المصرى . من مزرعتك إلى الميناء اليوم .

نفث (جاويد) دُخان سيجارته ، وابتسم فى مكر ، وهو يقول :

ــ ولكننا لم نتفق معه على الطريقة التى ستعاونوننى بها ؛ لتهريب (الأفيون) إلى الموانى الإنجليزية يا عزيزى الكولونيل .

تطلَّع (الأسترتانى) إلى ساعته فى قلق ، وهو يقول :

ــ سنتفق على كل هذا فيما بعد ، فلست مختصًّا بمثل هذه الأمور و ....

قاطعه (جاويد) فى صرامة :

ــ معذرة أيها الكولونيل ، لن يغادر المصرىّ مزرعتى ، قبل أن نتفق على كل التفاصيل .. حتى التعويضات التى ستدفعونها ، إذا ما فشلتم فى إدخال الشحنة إلى (إنجلترا) .

احتقن وجه الكولونيل (الأسترتانى) غضبًا ، وهو يقول فى حِدَّة :

ــ أى عبث هذا ؟.. ألا تقدِّر خطورة عمليَّتنا ، وأهميتها بالنسبة لأمن (أسترتان) ؟

هتف (جاويد) فى صوت أكثر حِدَّة :

ــ فلتذهب عمليتكم وأهميتها إلى الجحيم .. المهم هو عمليتى أنا ، لقد ماطلتمونى طويلًا ، على الرغم من كل الخدمات ، التى قدَّمتها لكم ، ولن يبارح المصرىّ مزرعتى قبل أن نحسم هذا الأمر .

هبَّ الكولونيل واقفًا فى غضب ، ولكن فوَّهة مدفع حارس (جاويد) ، التى التفتت إليه ، جعلته يعاود الجلوس ، وهو يكظم غيظه ، مغمغمًا :

ــ حسنًا .. ماذا تريد ؟

ابتسم الحارس فى سخرية ، وأدار وجهه مرَّة أخرى ناحية الشُّرفة ، ثم اتسعت عيناه فى دهشة ، حينما وقع بصره على (ممدوح) و (رستم) ، وهما يهبطان فى درجات السُّلَّم ، المؤدِّى إلى الشُّرفة ، فى حَذَر ، ودون أن ينطق بحرف واحد ، وبكل التدريبات التى تلقَّاها ، أدار فوَّهة مدفعه الرشَّاش نحوهما ..

وأطلق النار ..

* * *

٩ ــ صراع الأشرار ..

انطلق وابل من الرصاصات نحو (ممدوح) و (رستم) ، فقفزا من فوق سياج السُّلَّم ، واحتميا بجداره ، لمواجهة هذا الهجوم ، فى حين انتفض (جاويد) والكولونيل (الأسترتانى) فى مقعديهما ، وقد أجفلتهما المفاجأة ، وحوَّل الحارس فوَّهة مِدْفعه نحو (رستم) فى شراسة ، ولكن رصاصات (ممدوح) أردته قتيلًا على الفور .. وأسرع (جاويد) يقبض على مسدَّسه ، ولكن تلك النظرة الصارمة القاسية فى عينى (ممدوح) و (رستم) جعلته يتخلَّى عنه فى بطء ، وهو يتطلَّع إلى (رستم) ، مغمغمًا فى ذهول :

ــ (رستم) ؟!.. كيف تجرؤ على اقتحام مزرعتى ، وقد كنت يومًا كلبًا من كلابى .

أجابه (رستم) فى غضب :

ــ (رستم) لم يكن يومًا كلبًا لأحد ، وحتى الكلاب تأبى أن تتزعَّمها أنت .. لقد كنت لك درعًا يتلقَّى عنك الضربات ،

والطعنات ، ولكنك سارعت بالتخلِّى عنى ، حينما احتجت إلى معاونتك ، بل قتلت الشيخ (نشأت) ، الرجل الوحيد الذى أدين له بالفضل فى هذا العالم .

جاويد :

ــ أنتما أحمقان .. صوت رصاصات حارسى سيجلب كل رجالى ، وسيسحقونكما سحقًا .

قال (ممدوح) فى صوت هادئ واثق :

ــ إنهم لن يغامروا بحياتك ، التى تتعلَّق هى وحياة شريككك على الإفراج عن المصرى ، وتسليمه لنا .

امتزج الغضب والسخرية فى وجه (جاويد) ، وهو يقول :

ــ لكم ؟!.. ومن أنت أيها البطل الهمام ؟

أجابه الكولونيل (الأسترتانى) ، وهو يرمق (ممدوح) بنظرة غاضبة ساخطة :

ــ (ممدوح عبد الوهاب) ، عميل المكتب رقم (١٩) ، وواحد من أخطر رجال الأمن فى العالم .

ارتسمت على شفتى (ممدوح) ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـــ هل يكفيك هذا الجواب ؟.. إننى أريد (فريد) خلال ربع ساعة على الأكثر ، أو ....

قاطعه صوت (رستم) ، وهو يشير إلى الشُّرفة ، صائحًا :

ـــ احترس .. إنهم قادمون !

لم يكد (جاويد) يسمع هذه العبارة ، ويرى رجاله يُهْرَعُون إليه ، حتى التقط مسدَّسه ، وصاح فى غضب :

ـــ أنت ميِّت أيها المقدَّم .. ميِّت .

* * *

دار (ممدوح) على عقبيه فى سرعة البرق ، وانطلقت من مسدَّسه رصاصة ، حطَّمت يد (جاويد) ، فصرخ فى ألم وَرُعب ، فى حين هبط رجلان من الطابق العلوىّ ، وصوَّبا مسدَّسيهما نحو (ممدوح) و (رستم) . الذى صاح :

ـــ احترس أيُّها المقدَّم .

واختلطت صيحته بأزيـــز رصاصة ، مرقت فوق رأس (ممدوح) تمامًا ، وأخرى عَبَرت بين ساقيه ، فالتفت هو و (رستم) إلى الرجلين فى سرعة ، وأمطراهما برصاصات مدفعيهما ، فسقطا مضرَّجَيْن بدمائهما ، يتدحرجان على السُّلَّم ، على حين اندفع ثلاثة رجال من حجرة جانبية ، وأطلق

أحدهم الرصاص على (رستم) ، فأصاب كتفه ، وصرع (ممدوح) أحدهم برصاصاته ، فى حين اندفع الآخر يفتح الباب أمام باقى الرجال .. فلم يجد (ممدوح) بدًّا من التراجع ، وهو يطلق رصاصاته دفاعًا عن نفسه ، فى حين أمطر (رستم) الرجال برصاص مدفعه ، وهو يصرخ فى غضب وشراسة ، وصرع ثلاثة منهم ، قبل أن يمتلئ جسده برصاصاتهم ، ويلفظ أنفاسه الأخيرة ..

ووسط كل هذا الجحيم ، أخرج الكولونيل (الأستوتانى) من جيبه جهازًا لاسلكيًّا صغيرًا ، أوصله بأعوانه ، وهو يصدر إليهم أوامره ، قائلًا :

ـــ ابدءُوا فى تنفيذ العملية ، وسألحق بكم .

وتطلَّع إلى (جاويد) ، ثم استطرد فى حزم :

ـــ وإذا ما اعترضكم أحد رجال (جاويد) ، فاقتلوه بلا تردُّد .. فلابدَّ من نقل العميل المصرى من هنا ، خلال عشر دقائق على الأكثر .

تحوَّل (جاويد) إليه ، وهو يهتف فى غضب :

ـــ إننى أبغض هذا النوع من التلاعب ، وأكره من يحاول استغلال الأمور لصالحه .. إنك لن تفلت بصقرك أبدًا .

قال هذا وهو يستلّ خنجره ، ويشْهره فى وجه الكولونيل ، الذى انتزع مسدّسه من غمده فى سرعة ، وأطلق رصاصته ، لتستقر فى رأس (جاويد) ، الذى جحظت عيناه فى شدة ، ثم هَوَى جثة هامدة ..

واستشاط رجال (جاويد) غضبًا ، حينما رأوا مصرع زعيمهم ، فتحوّلت فوّهات أسلحتهم نحو الكولونيل ، ولكن ثلاثة من أعوانه اقتحموا المكان فى تلك اللحظة ، وفاجئوا رجال (جاويد) من الخلف ، وصاحوا بهم فى صرامة :

ــ ألقوا أسلحتكم وإلّا أطلقنا عليكم النار .

ألقى رجال (جاويد) أسلحتهم فى خوف واستسلام ، وصاح الكولونيل :

ــ اقتلوا المصرى .. اقتلوه .

سأله أحد رجاله فى دهشة :

ــ أىّ مصرى ؟

تلفّت الكولونيل حوله فى ذهول ، فقد كان (ممدوح) قد اختفى ، كما لو أنه لم يكن هناك شىء أبدًا ..

* * *

نقل (الأسترتانيون) (فريد عبد الكريم) مخدّرًا ، داخل

صندوق خشبىّ ، إلى سيّارة من نوع (الجيب) ، أمام المنزل ، وتخلّصوا من رجال (جاويد) ، قبل أن تنطلق (الجيب) ، تتبعها ثلاث سيارات أخرى نحو الجبل .. ولكن البقية من رجال (جاويد) نصبوا لهم كمينًا ، فقد انهال عليهم وابل من الرصاصات ، من بين أشجار التبغ ، وهم يخترقون المزرعة ، مما أصاب سيّارتين ، وأرْدَى أربعة من (الأسترتانيين) قتلى ، مع تبادل إطلاق النار ، واحتماء (الأسترتانيّين) بسيّاراتهم ، حتى قال أحدهم للكولونيل فى توتّر :

ــ إنهم سيقضون علينا حتمًا ، فهم أكثر دراية بخبايا المكان .

أجابه الكولونيل فى هدوء ، وهو يبدّل خزانة مسدّسه الفارغة بأخرى محشوّة :

ــ هؤلاء الأوغاد لا يقلقوننى ، بقدر ما يقلقنى اختفاء ذلك المقدّم المصرى ، كم كنت أودّ التخلُّص منه ، قبل مبارحة المكان .

حدّق الرجل فى وجهه ، وهو يهتف فى دهشة :

ــ الخطر الحقيقى يكمن فى رجال (جاويد) يا سيّدى .. لقد قتلوا أربعة منّا حتى الآن .

أشار الكولونيل إلى اثنين من أتباعه ، خلف السيَّارة الأخرى ، فهرعا إليه ، وهما يحتميان بالسيَّارات المتلاصقة ، فقال لهما فى صرامة :

ــ هل أحضرتما قاذفتى اللَّهب ؟

أجابه أحدهما فى انفعال :

ــ نعم يا سيِّدى .. إنهما فى السيَّارة السَّوداء .

أشار فى برود إلى النقطة التى تنهمر منها الرَّصاصات ، وهو يقول :

ــ أحرقا هؤلاء الأوغاد .

عاد الرجلان إلى سيَّارتهما ، وسرعان ما كانت ألسنة اللهب تتصاعد من أشجار التبغ ، ورجال (جاويد) يركضون مذعورين هنا وهناك ، ورصاصات (الأسترتانيين) تحصدهم حصدًا .. وابتسم الكولونيل ابتسامة صفراء ، وهو يرى رجال (جاويد) يتساقطون كالجرذان أمام رجاله ، وقال فى سخرية :

ــ ألم أقل لكم ؟.. إن هؤلاء الأوغاد لا يستحقون القلق .

ثم أشار بكفِّه فى صرامة ، مستطردًا :

ــ هيَّا إلى السيَّارات .. لقد تأخَّرنا عن موعدنا .. لقد حان موعد إرسال (الصقر) إلى المذبح .

* * *

وسط المعركة الدامية ، التى دارت بين الجانبين ، والحريق الهائل ، الذى شبَّ فى المزرعة ، كان (ممدوح) يزحف كالفهد وسط الأعشاب الجافَّة ، حتى بلغ سيَّارات (الأسترتانيين) ، وانقضَّ على أحد رجالهم ، وهو يهمّ بركوب السيَّارة الأخيرة ، بعد انصراف (الجيب) والسيَّارات الأخرى ، وطرحه أرضًا ، وانهال عليه باللكمات ، فى نفس اللحظة التى رأى فيها زميل الأسترتانى ما حدث ، فصوَّب فوَّهة مدفعه الرَّشَّاش نحو (ممدوح) ، وانتظر فرصة سانحة ليطلق رصاصاته نحوه ، وسط الصِّراع المحتدم بينه وبين زميله ، الذى كان يحول بينه وبين (ممدوح) ..

وبلكمة ساحقة أخيرة ، أنهى (ممدوح) صراعه مع خصمه ، وألقى به فوق زميله المسلَّح ، وقبل أن يستردّ الثانى توازنه ويطلق نيران مدفعه الرَّشاش على (ممدوح) ، كان هذا الأخير قد اختطف قاذفة اللهب ، وأطلق ألسنة الجحيم نحو الرجل ، الذى تحوَّل فى لحظة إلى كتلة من اللهب ، وفاز المقدَّم المصرى ..

وانطلق (ممدوح) بالسيَّارة ، فى سباق مع الزمن .. من أجل (الصقر) ..

* * *

وانقضَّ على أحد رجالهم ، وهو يهمّ بركوب السيارة الأخيرة ، بعد انصراف (الجيب) والسيارات الأخرى وطرحه أرضًا ..

١٠ ــ الشُّحنة الآدميَّة ..

توقَّفت (الجيب) فى مكان قريب من الميناء ، وقام رجال الكولونيل بنقل الصندوق ، الذى يحوى جسد (الصقر) ، إلى سيَّارة نقل كبيرة ، تحمل عددًا من الصناديق المشابهة .. ولم ينسَ الكولونيل إضافة علامة مميَّزة إلى الصندوق ، الذى يحمل (فريد) ، وعلى مسافة غير بعيدة ، وقف (ممدوح) يراقب ما يحدث فى اهتمام ، وهو يجلس داخل السيَّارة ، التى استولى عليها من رجلى المخابرات (الأسترتانية) ، ورأى الكولونيل يشير إلى سيَّارته ، وهو يهتف محتدًا :

ــ لماذا توقَّف هذان الغبيَّان بعيدًا ؟.. لماذا لم يلحقا بنا ؟.. ليس لدينا وقت نضيعه .

أجابه معاونه :

ــ ربَّما أصيبت السَّيارة بعطب ما .

همهم الكولونيل بعبارة ساخطة ، وصعد إلى كابينة سيَّارة النقل ، وهو يقول فى حَنَق :

ـــ الأمر لا يحتمل أيَّة تأخيرات أخرى ، فليلحقا بنا فيما بعد .

وأصدر أمره إلى سائق النقل بالتحرُّك ، فى حين قفز مساعده وسط الصناديق الخشبيَّة فى المقطورة ، وانطلقت بهم السيَّارة ، وتبعها (ممدوح) فى حَذَر ، حتى رآها تعبُر بوَّابة الميناء ، فأوقف سيَّارته ، وهبط منها ، واتجه إلى الميناء بدَوره ، واستطاع من موقعه ، على رصيف الميناء ، أن يرقب (ونشًا) ضخمًا ، وهو ينقل الصناديق من سيَّارة النقل إلى قاعدة خشبية خاصة ، يتمّ حملها فيما بعد إلى سفينة شحن (أسترتانية) ، ترسُو أمام رصيف الميناء ، يعمل فوقها عدد من العمَّال فى همَّة ونشاط ، لرصّ الصناديق التى يحملها (الونش) ، داخل السفينة ، وغمغم (ممدوح) ، وهو يراقب ما يحدث :

ـــ لا ريب أن ترتيبات ضخمة قد اتُّخِذَتْ ؛ لتنتهى العملية على هذا النحو ، وسيتغاضى البعض ولا شك عن الإجراءات الجمركيَّة ، والتفتيش ؛ لترحل السفينة فى أسرع وقت ممكن إلى (أسترتان) ، وعلى متنها (الصقر) الذى ينتظرون قدومه هناك بفارغ الصَّبر .

وانتظر فى مكمنه حتى انتهت عملية الشحن تمامًا ، وتوجَّه الكولونيل مع مساعده إلى مكتب الأمن بالميناء ؛ لإنهاء إجراءات السفر ، وغطس فى الماء فى هدوء ، إلى جوار إحدى السفن الهولندية ، وسبح محاذرًا أن يصدر صوتًا ملفتًا ، أو يتناثر من ضربات ذراعيه الماء ، حتى لا يلفت انتباه أحد إليه ، فقد كان واثقًا من وجود حراسة مشدَّدة على متن السفينة ، لما تحمله من صيد ثمين .. وكان عليه أن يستعدّ لمواجهة ذلك ، وكل ما يحمله هو مسدَّسه المزوَّد بكاتم للصوت ، والذى يحمله داخل كيس خاص ، يحميه من الماء ، وواحدة من كرات (رستم) الفولاذية ، وقفَّازان من مادة لاصقة خاصة ، يتيحان له التعلُّق بحاجز السفينة ، والصُّعود إليها ..

ولقد استخدم هذين الأخيرين فى نجاح ، وجهد ، حتى وصل إلى سطح السفينة بالفعل ، ومن حسن حظِّه أنه قد فعل دون أن يلمحه أحد ، ولكنه لم يكد يستقر فوقه ، حتى لمح شخصًا يُولِيه ظهره ، وقد استغرق فى إشعال سيجارته ، فخلع أحد قفَّازيه ، استعدادًا للانقضاض على الرجل ، إلَّا أن صوتًا قويًّا صاح من خلفه فى صرامة :

ـــ قِفْ مكانك ، وإلَّا أطلقت النار ..

* * *

كان الموقف يحتاج إلى تصرُّف حاسم ، وسريع ؛ لذا فقد دار (ممدوح) حول نفسه فى سرعة وخفَّة ، والتقط كرة (رستم) الفولاذية فى سرعة ، وألقى بها فى وجه الرجل ، الذى يهدِّده بمدفعه الرشاش ، فأصابته فى جبهته ، وأطاحت به فوق السفينة كالإعصار ، وانتبه زميله إلى الضجة التى حدثت ، فألقى سيجارته ، واستدار نحو (ممدوح) ، وهو ينتزع مسدَّسه من غِمْده .. ولكن (ممدوح) اختطف أحد أطواق النجاة ، المعلَّقة على سور السفينة ، وقذفه نحو الرجل ، الذى ارتبك لحظة ، كانت كافية لأن يلتقط (ممدوح) مسدَّسه المزوَّد بكاتم للصوت ، ويطلق رصاصته على رأس الرجل تمامًا ..

وفى سرعة وخِفَّة وصمت ، التقط (ممدوح) مسدَّس الرجل ، وألقى بالرجل نفسه فى البحر ، ثم تسلَّل بين الصناديق المتراصَّة ، بحثًا عن ذلك الذى يحمل علامة مميَّزة ، والذى يحوى (فريد) ، أو (الصقر) .

وأخيرًا .. عثر (ممدوح) على مبتغاه ، وأسرع يفتح الصندوق ، فرأى داخله (فريد) فى إعياء كامل ، ولم يكد هذا الأخير يراه ، حتى غمغم فى صوت يقاوم أثر المخدِّر :

ـــ أين أنا ؟ .. ومن أنت ؟

ممدوح :

ـــ أنا صديق ، ولقد جئت ؛ لأنقذك من (الأسترتانيين) .

غمغم (فريد) ، وهو يرخِى جفنيه فى إعياء :

ـــ صديق ؟! .. الأسترتانيون ؟!

هزَّه (ممدوح) فى قوَّة ، محاولًا إيقاظه ، وهو يقول :

ـــ حاول أن تستردَّ وعْيَك يا صديقى .. إننا محاطان بالخطر .

فتح (فريد) عينيه فى صعوبة ، فناوله (ممدوح) المسدَّس ، الذى استولى عليه ، وهو يقول :

ـــ هيَّا .. استيقظ ، وغادر هذا الصندوق اللَّعين ، وحاول أن تفيد من هذا المسدَّس ، إذا ما تأزَّمت الأمور .

ولكن (فريد) عاد يرخِى جفنيه فى إعياء ، وتراخت يده الممسكة بالمسدس ، فغمغم (ممدوح) فى حَنَق :

ـــ يبدو أنه ما من فائدة .. إن المخدِّر يسيطر على عقله تمامًا .

ثم انحنى محاولًا حمله خارج الصندوق ، إلَّا أنه تسمَّر فجأة ، حينما سمع صوت الكولونيل (الأسترتانى) ، وهو يأتى من خلفه قائلًا فى صرامة :

ـــ لا تحاول .

التفت (ممدوح) إلى مصدر الصوت فى حركة سريعة ، ورفع مسدَّسه ، ولكنه عاد يخفضه فى هدوء ، فقد كان يواجه الكولونيل ، وخمسة من رجاله بمدافعهم الرَّشَّاشة ، المصوَّبة إلى صدره ..

كان يواجه الموت نفسه ..

* * *

١١ ــ الصِّراع الأخير ..

كانت كل خلجة ، من خلجات الكولونيل (الأسترتانى) ، تشى بانتصاره وصرامته وقسوته ، وهو يقول :

ــ كنت واثقًا من أنك ستأتى لا محالة ، فلم يكن يقلقنى فى هذه العملية كلها سوى أنك قد دسست أنفك فيها ، ولكن يبدو أن هذا كان لسوء حظّك ، فموتك هذه المرّة محتومٌ .

وقف (ممدوح) عاجزًا ، فى حين قال الكولونيل لرجاله فى لهجة آمرة صارمة :

ــ أوثقوه بالحبال ، وضعوه فى أحد الصناديق الفارغة .

سأله أحد رجاله :

ــ هل سنحمله معنا إلى (أسترتان) ، كشحنة إضافية ؟

ابتسم الكولونيل فى سخرية ، وهو يقول فى شماتة :

ــ بل سنقتله داخل ذلك الصندوق ، ونلقى به طعامًا للأسماك المفترسة .

وجلجلت ضحكته الساخرة فى الميناء كله ..

* * *

فى نفس هذه اللحظة ، وبينما كان الكولونيل يطلق ضحكته المجلجلة ، برز عدد من الضفادع البشريَّة فوق سطح الماء ، إلى جوار السفينة ، وثبَّت أحدهم على جدارها سُلَّمًا ، ينتهى بخطَّافين محاطين بإطارات مطَّاطية ، وصعد رجال الضفادع البشرية إلى سطح السفينة فى حَذَر وهدوء ، وكل منهم يحمل بندقية صيد مائية ، مزوَّدة بسهم حادّ مدبَّب ..

وفى اللحظة التى همَّ فيها رجال الكولونيل بتقييد (ممدوح) ، انطلق سهمان ، ليخترقا عنق رجلين ، فالتفت الكولونيل ورجاله إلى مصدر الضربة فى ذُعر ، وانهال عليه سيل من سهام الصيد .. أمَّا (ممدوح) فقد دفعته المفاجأة إلى التحرُّك فى سرعة ، فعاجل أقرب (الأسترتانيين) إليه بلكمة ساحقة على فكّه ، وأخرى فى معدته ، واختطف مسدَّسه ، لينضمَّ إلى الضفادع البشريَّة فى القتال ، دون أن يدرى من هم ، ولماذا جاءوا ، استنادًا إلى القاعدة التى تقول : « أعداء أعدائى هم أصدقائى » .. ودارت معركة حامية الوطيس على متن السفينة . تبادل فيها الطرفان إطلاق النيران ، وانهالت فيها السِّهام على رجال الكولونيل ..

ووسط هذا الجحيم المستعر ، اندفع أحد الضفادع البشرية نحو (ممدوح) ، وهو يهتف فى حرارة :

ــ مرحبًا يا أخى (ممدوح) .. أخوك (عبد الله) ورفاقه فى خدمتك دائمًا .

ارتسمت الدهشة فى وجه (ممدوح) ، وهو يتطلَّع إلى وجه (عبد الله) .. الراكب السُّعودى ، الذى رافقه فى رحلته إلى (إسطنبول) ، وشعر لأوَّل مرَّة بالسعادة لرؤيته ، ولكن (عبد الله) رفع بندقية الصيد فى وجهه ، وهتف فى صرامة :

ــ مُتْ أيها الوغد ؟..

وأطلق السَّهم القاتل ..

* * *

تحرَّك (ممدوح) فى سرعة ، محاولًا تفادى السَّهم ، وأدهشه أن السَّهم قد مرق بعيدًا عنه ، وتجاوزه ، ليستقرّ فى صدر أحد (الأسترتانيين) ، الذى كان يهمّ باغتياله من الخلف ، ورأى (عبد الله) يبتسم مرَّة أخرى ، وهو يقول فى هدوء :

ــ لا تجعل فرحتك بلقائى تفقدك واجب الحذر يا صديقى .

انتهز أحد رجال المخابرات (الأسترتانية) فرصة الهرج والقتال ، واندفع نحو الصندوق ، الذى يحوى (الصقر) ، وصوَّب مسدَّسه إليه ، صائحًا :

ـــ ألقوا أسلحتكم ، وإلَّا أرديت العميل المصرىَّ قتيلًا على الفور .

أشار (ممدوح) إلى (عبد الله) ورجاله بالتوقُّف عن مواصلة القتال ، وخامرهم جميعًا شعورٌ باليأس والعجز ، إزاء هذا الموقف ..

وفجأة .. انطلقت من داخل الصندوق رصاصة ، غاصت فى رأس (الأسترتانى) ، الذى ترنَّح لحظة فى ذهول ، ثم سقط جثة هامدة ، وقفز (فريد) من داخل الصندوق ، ممسكًا بالمسدَّس الذى تركه له (ممدوح) ، وقد زال عنه أثر المخدِّر ، وهو يهتف فى حماس :

ـــ لقد خفقت أجنحة (الصقر) مرَّة أخرى .

وعادت المعركة تحتدم ، وحمى وطيسها ، وشعر الكولونيل باليأس والسخط ، وقد بدت له هزيمته حتمية ، فاندفع نحو حاجز السفينة ، يهمّ بالقفز منها ، وهو يحمل أحد أطواق النجاة ، ولكن (ممدوح) أسرع نحوه هاتفًا :

ـــ إلى أين ؟.. الحفل لم ينته بعد .

تحوَّل إليه الكولونيل فى سرعة ، والحَنَق يختلط بالغضب فى ملامحه ، وأطلق نحوه رصاصة ، تفاداها (ممدوح) فى مهارة ، ثم انقضَّ عليه ، وهو يقول :

ـــ إنك تفسد كل شىء كالمعتاد .

وقبض على معصمه ، ورفع فوَّهة مسدَّسه إلى أعلى ، ثم لفَّ ذراعه فى حركة ماهرة ، فوجد الكولونيل نفسه يدور فى الهواء ، ويسقط أرضًا ، إلَّا أنه نهض فى سرعة ، واندفع برأسه فى معدة (ممدوح) ، ثم اختطف سلسلة حديدية من أحد قوارب الإنقاذ ، وهوَى بها على رأس (ممدوح) ، الذى تفاداها فى مهارة ، وتلقَّاها على كتفه ، وشعر بآلامها المبرِّحة ، التى خُيِّل له معها أن عظام كتفه قد انخلعت ، ولكنه قفز مبتعدًا فى مهارة ، وركل الكولونيل فى معدته ، قبل أن يعاود الكرَّة ، ثم أعقب ذلك بعدة لكمات قويَّة سريعة ، متعاقبة ، جعلت الرجل يرتطم بالصندوق المفتوح ، الذى كان يحوى جسد (الصقر) .. وبلكمة أخيرة أسقط (ممدوح) الكولونيل داخل الصندوق فاقد الوعى ، وزفر وهو يقول :

ـــ لا أظن أن مفعول لكماتى سيختلف كثيرًا عن مفعول المخدِّر ، الذى حقنتم به (فريد) ، وأظنك ستنعم بنوم عميق ، حتى تصل إلى (أسترتان) .

وحمل غطاء الصندوق ، ليثبِّته فوقه ، إلَّا أن (فريد) التقط الغطاء ، وهو يقول ساخرًا :

ثم اختطف سلسلة حديدية من أحد قوارب الإنقاذ ، وهوى بها على رأس (ممدوح) ، الذى تفاداها فى مهارة ..

ـــ اترك لى هذه المهمَّة يا صديقى ، سيروق لى أن أتحوَّل من مصدِّر إلى مصدِّر .

ابتسم (ممدوح) ، قائلًا :

ـــ يسعدنى أن أتنازل لك عن هذا الشَّرف يا صديقى .

وفجأة .. غمرت أضواء كشَّافات خفر السواحل سطح السفينة ، وانطلقت صفَّارات الإنذار ، فأسرع الجميع ينبطحون أرضًا ، محتمين بحاجز السفينة ، وقال (عبد الله) لـ (ممدوح) :

ـــ علينا أن نزحف إلى الجهة الأخرى ، وننتظر حتى تبتعد الأضواء ، ثم نقفز إلى الماء .. فلست أطمئن إلى خفر السواحل هنا .

سأله (ممدوح) :

ـــ وأين نذهب بعد ذلك ؟

عبد الله :

ـــ إلى سفينة شحن سعوديَّة ، ترسُو بالقرب من هنا .

ممدوح :

ـــ ولكنهم سيبادرون بتفتيش كل السفن ولا شك ، قبل مغادرتها الميناء .

عبد الله :

ـــ اطمئن .. لقد حسبنا كل الاحتمالات .

التفت (فريد) إلى (عبد الله) يسأله :

ـــ لا تنسَ أننا لا نملك أجهزة غَوْص مثلكم ، ولو ارتفعنا إلى السطح لاستنشاق الهواء ، فسيشعر بنا خفر السواحل .

عبد الله :

ـــ سنتبادل أسطوانات الأكسجين تحت الماء .

كان الضوء يبتعد عنهم فى تلك اللحظة ، فهتف (عبد الله) :

ـــ الآن .

وبسرعة قفز الجميع فى الماء ، وغاصوا فى أعماقه ..

وبدأت رحلة العودة ..

* * *

كانت السَّلالم المطَّاطية تتدلَّى من سفينة الشحن السعوديَّة ، حينما وصل إليها الجميع ، فأسرعوا بتسلُّقها ، وخلعوا ملابس الغوص ، وألقوها فى البحر ، ثم اصطحب (عبد الله) (ممدوح) و (فريد) إلى جوف السفينة ، وأشار إلى السيارتين الألمانيتين الفاخرتين ، وهو يبتسم قائلًا :

ـــ هل يعجبك هذا الطراز من السَّيارات يا صديقى (ممدوح) ؟

تعجَّب (ممدوح) من هذا السؤال ، الذى لا يناسب الموقف ، إلَّا أن (عبد الله) أطلق ضحكة مرحة ، وهو يستطرد :

ـــ هل صدَّقت أننى قد ابتعتهما حقًّا من أجل ولدىَّ ؟! .. إننى لم أتزوَّج بعد فى الواقع ، ولكننى أحضرت السَّيَّارتين لحساب المخابرات السعوديَّة ، فأنا أحد رجالها .

ارتسمت الدهشة على وجهى (ممدوح) و (فريد) ، على حين استطرد (عبد الله) فى هدوء :

ـــ سيحتاج الأمر إلى شرح طويل ، لا مجال له الآن ، فسرعان ما يصل رجال مباحث الميناء ؛ لتفتيش السفينة ، ويكفى أن تعلما أن مقعدى السَّيارتين الخلفيين مزوَّدان بتجويف سرِّىَ خاص ، لا يمكن كشفه أو فتحه إلا بشفرة سرِّيَّة بالغة التعقيد .

واتسعت ابتسامته ، وهو يردف :

ـــ وهذا المكان معدّ لكما ، حتى نصل إلى المياه الدولية ، بإذن الله .

* * *

كان المخبأ ضيِّقًا ، ولكن (ممدوح) و (فريد) احتملاه طوال يوم كامل ، حتى أخرجهما (عبد الله) ، حينما وصلت السفينة إلى

المياه الدولية .. واصطحبهما (عبد الله) إلى مائدة عامرة ، حافلة بالأطعمة الشهيّة ، فتناولا طعامهما فى شراهة ، وأجريا بعض التمرينات الرياضيّة الخفيفة ، للتخلُّص من تصلُّب عضلاتهما ، بعد طول الرُّقاد فى المخبإ السِّرّى ، وبعدها جلسا مع (عبد الله) على سطح السفينة ، يتطلّعان إلى صفحة الماء ، فى طريقهما إلى (جدّة) ، وقال لهما (عبد الله) :

ـــ أنتما تعلمان بالطبع أنه هناك تعاون وثيق ، بين أجهزة الأمن والمخابرات فى معظم دول الشرق الأوسط ، بما فيها (مصر) و (السعودية) .. وحينما علمت إدارة العمليات الخاصّة المصريّة بأمر سفرى إلى (تركيا) ، لشحن السيّارتين ، اتصلت بنا ، وطلبت منّا تقديم كل معاونة ممكنة للمقدّم (ممدوح) ، فى مهمته الخاصّة هناك ، ويسعدنى أن نجحت مع رفاقى فى تأمين هذه المعاونة فى الوقت المناسب .

ممدوح :

ـــ ولكن لماذا أخفيت عنّى أمرك ، حينما التقينا فى الطائرة ؟

عبد الله :

ـــ هكذا كانت تقتضى الأوامر .. فلقد خشينا أن يلحظ (الأسترتانيون) وجود أيّة صلة بيننا ، فيضعونى تحت

مراقبتهم ، فأفقد قدرتى على معاونتك .. وأعتقد أننى أدين لك بالاعتذار عن تلك الأحاديث التافهة ، التى صدّعت بها رأسك طوال الرحلة ، فقد كان هذا جزءًا من الخُطّة لإجادة التخفّى .. وعمومًا لقد أعددنا كل شىء لتستقلّا أوّل طائرة إلى القاهرة ، فور وصولكما إلى (جدّة) .

ابتسم (ممدوح) ، قائلًا :

ـــ إنك تستحقّ منّا كل تقدير وإعجاب يا (عبد الله) .

عبد الله :

ـــ إن دورى المحدود هذا لا يساوى شيئًا ، أمام بطولاتك يا صديقى .. ومن دواعى فخرى أننى أسْهَمْت بهذا الدَّوْر المتواضع ، فى هذه المغامرة .

أغرق (فريد) فجأة فى الضحك ، فسأله (ممدوح) فى دهشة :

ـــ ماذا يضحكك ؟

أجابه (فريد) ، وهو يواصل ضحكه :

ـــ لقد تخيّلت فجأة وجوه المسئولين فى المخابرات (الأسترتانية) ، حينما تعود السفينة إلى (أسترتان) ،

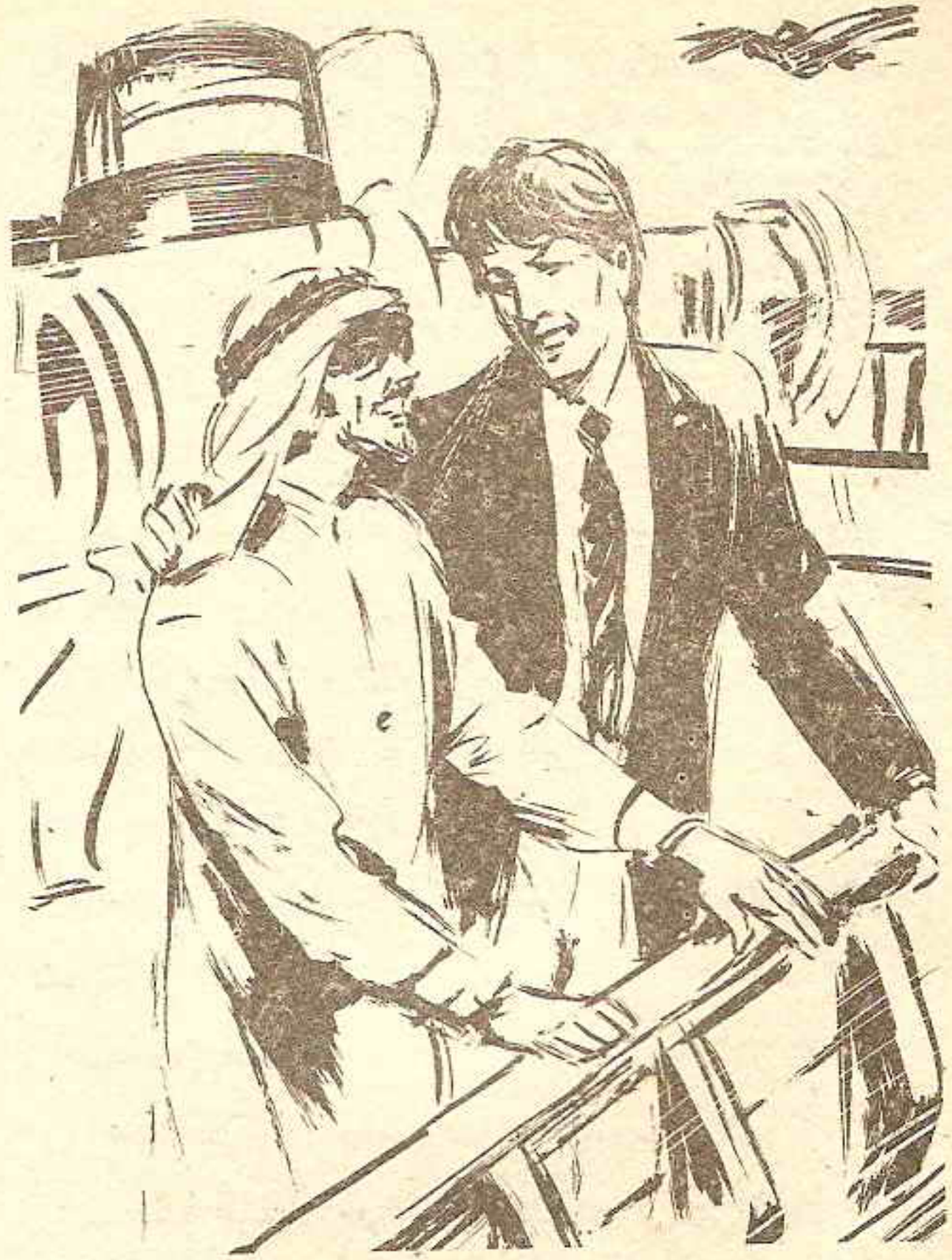

ابتسم (ممدوح) ، قائلًا :

ـــ إنك تستحق منا كل تقدير وإعجاب يا (عبد الله) ..

ويفتحون الصندوق ، الذى من المفروض أن أكون داخله ، ليجدوا بدلًا منّى رجلهم المكلَّف اختطافى .. تخيَّلا !

تطلَّع (ممدوح) و (عبد الله) إلى بعضهما البعض لحظة ، ثم انفجرا معا بالضحك ..

وحلَّق (صقر) حرًّا طليقًا فوق السفينة ..

* * *

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٣٦٢٠

المؤلف

ا . شريف شوقى

إدارة العمليات الخاصة
المكتب رقم (١٩)
سلسلة روايات
بوليسية للشباب
من الخيال العلمى

العميل الهارب

جاء ردّ فعل (ممدوح) سريعًا ، متفوّقًا ، فقد التقط الخنجر المعلّق فى حزام المصاب ، الذى يرقد أمامه ، ودار على عَقِبَيْه بسرعة البرق ، وقذف الخنجر نحو (الأسترتانى) ، فغاص حتّى مقبضه فى قلبه ..

٣٦

العدد القادم

ذراع الأخطبوط

الثمن فى
مصر
ط
٦
يعادل
لارا
فى
الد
العرب
والعـ